#لغات_حية

كيف تتعامل الشعوب مع لغاتها؟

ملاحظات عملية حول السياسة اللغوية في بلدان العالم:

مكانة اللغة الأم

السلوك في حالة تعدد اللغات

اللغات الجهوية ولغات الأقليات

أحمد القاري

تقديـــم

هذا الكتاب تجميع لمنشورات في المسألة اللغوية كتبتها بشكل متفرق على فيسبوك لمدة سنوات. هي خواطر وتجارب شخصية وملاحظات سجلتها في زيارات لأكثر من 47 بلدا.

يمكن قراءة الكتاب وفق الترتيب الذي يريده القارئ. فكل منشور يشكل وحدة مستقلة.

في ترتيب المنشورات بدأت بتجربتي الشخصية مع اللغة العربية لغتي الأم، ومع تعلم اللغات الأجنبية الفرنسية والإسبانية والإنجليزية مع خلاصات ونصائح حول أفضل الطرق لتعلم اللغات.

القسم الموالي يعرض التجربة الصينية التي اطلعت عليها من خلال زيارات متكررة للصين ومن خلال محاولة غير ناجحة لتعلم اللغة الصينية. وكذلك تجارب عدد من الدول الآسيوية.

بعد ذلك عرضت التجارب الأوربية مع ملاحظات حول الحلول التي اعتمدها الأوربيون للتعامل مع لغات الأقاليم.

وقد تعرضت للتجربة في كيبيك والنموذج الذي تقدمه في حماية اللغة الأم والانتصار لها وسياسة الفرنسة التي أقترح أن تكون مثالا تحتذيه سياسة التعريب في بلداننا.

يقدم الكتاب حججا كثيرة يمكن استخدامها في نقاش السياسة اللغوية ولغة التدريس. وهو مفتوح للتحسين والتعديل، لذلك أرحب بالاقتراحات.

أشكر كل من ساهم في النقاش على فيسبوك فقد أخذت من الأصدقاء أفكارا كثيرة أغنت الموضوع.

سبعا أمير وسبعا أسير

نشأت في بيت لا تزاحم فيه اللغات الأجنبية العربية بصيغتيها الفصحى والحسانية. لم أشعر أبدا بأن جهل الحديث بلغة أجنبية أمر يجلب العار. وكان تعلم العربية الفصحى عملية سلسة، ممتعة، تعتمد على تربية تذوق اللغة أكثر مما تشدد على حفظ القواعد.

كان الوالد رحمه الله قارئا نهما، بالعربية فقط. وطبعا يكفي المرء أن يقرأ بنهم بلغة واحدة. فذلك خير من أن تكون قراءاته قليلة وضعيفة بلغتين أو أكثر.

بذلك فتحت عيني على رجل يستمتع بالكتب ويحب مشاركة متعتها مع الآخرين. وعلى محيط تشكل نقاشات الأدب والفقه واحدة من متعه الرئيسية.

تتحول الجلسات العائلية وجلسات الوالد مع الزوار بشكل تلقائي إلى حصص دراسية غير مباشرة.

يثير أحدهم مسألة فقهية فيستدعي البحث فيها مراجعة شرح لأحد المتون المشهورة. وأثناء قراءة النص يثار إشكال بخصوص معنى كلمة، فتتم مراجعة المعجم وقراءة المادة كاملة. الشواهد المرافقة للمادة والمواضع الجغرافية والمعلومات الموسوعية والأمثال تفتح آفاقا من المعرفة التي تتراكم بشكل تلقائي.

أثناء ذلك يتذكر أحد الحضور قصيدة مناسبة للسياق فيلقيها مجتهدا أن يكون إلقاؤه حسنا يشد الانتباه. يصحح له صديقه فينشأ عن ذلك نقاش نحوي دقيق ينتصر فيه من يستحضر القواعد المناسبة ويعضدها بشواهد نحوية مقبولة. يمكن أن يكون نقاشا في العروض وصحيح الوزن ومعتله. كما أنه يمكن أن يكون حول اختيار الشاعر للكلمات والصور البلاغية ومدى توفيقه في ذلك.

وربما يحتد النقاش حتى يصبح الصوت صاخبا إن كان في الحضور حديد طبع. يثير ذلك الأطفال فينتبهون للمعلومات المتطايرة. يرسخ منها شيء بأذهانهم وتختفي أخرى في انتظار أن تستقر لاحقا بالتكرار والإعادة.

في هذا الجو يكون تعلم اللغة عملية طبيعية متيسرة لا تعسف فيها ولا مشقة. ويكون موقف

الطفل من اللغة إيجابيا فهو يعرف أنها مصدر متعة بدون حدود.

طبق الوالدان قاعدة ترك السنوات السبع الأولى كاملة للعب. السبع الثانية في عرف قبائل الزوايا مخصصة لدراسة القرآن واللغة وما تيسر من متون الفقه بحسب طاقة كل فتى. وقد يستعمل في دراسة القرآن شيء من الشدة لتحقيق النتائج المطلوبة بأسرع وقت. حتى عبروا عن ذلك بالقول "سبعا أمير وسبعا أسير."

ولكن خلال السنوات السبع الأولى، وقبل أن يبدأ الطفل في تعلم القراء يكون قد سمع الكثير من النصوص. وحفظ عددا من سور القرآن والأدعية والأحاديث والقصائد عن طريق التلقين والتكرار المبني على التدرج والانتظام.

بيت واحد من الشعر يوميا يمكن أن يجعل الطفل يحفظ قصيدة أو اثنتين كل شهر. وعشرات القصائد خلال بضع سنوات. وطبعا لا شيء يضبط مهارة الطفل اللغوية مثل حفظ الشعر، أعلى مراتب التعبير اللغوي الإنساني.

يكون التلقين خلال السنوات السبع الأولى اختياريا ومرتبطا بالمكافأة. أو بالتنافس بين الأطفال. نتيجة هذا المنهج يوجد من يحفظ دواوين لا تحصى من الشعر العربي الجاهلي والإسلامي، ويستطيع إلقاءها متى أراد. لم أحقق هذه الميزة للأسف.

ينتمي الوالد إلى نظام التعليم المحظري، و هو نظام تعليمي ناجح كان منتشرا في بلاد شنقيط قبل الغزو الأوربي. و هو يقوم على تدريس الطلبة ما يحتاجون إليه و ما هو متاح حينها:

- اللغة و علومها
- العقيدة
- الفقه
- القضاء و البيوع و الأنكحة (ما يطلق عليه اليوم القانون)
- الآداب

- التاريخ

و توفرت في النظام المحظري عناصر نجاح مهمة:

- مبدأ تطوع الأساتذة و تواضعهم و قربهم من الطلبة

- رعاية الطالب و دعمه من قبل الشيوخ و المجتمع

- التعلم للعلم و ليس للحصول على شهادة شكلية

- وتيرة التعليم تكون حسب قدرة الطالب

- التعليم ممتع

- التعاون بين الطلبة

و يلاحظ أن طلبة المحاظر يتفوقون على غيرهم عند الدراسة في المؤسسات النظامية والجامعية سواء في موريتانيا أو خارجها. و عندهم معرفة باللغة و قدرة على الفهم و حس نقدي قلما يجاريهم فيها غيرهم. المعقول أن يتم البناء على هذه التجربة و الاستفادة منها إلى أقصى الحدود بدل القطيعة معها أو تشويهها و إفسادها بالبيروقراطية وتحويل عملية التعليم إلى شكل يؤدي للحصول على دبلومات فارغة من المحتوى.

و هذه هي بالضبط تجربة جامعات غربية عريقة مثل أوكسفورد و كامبريدح، فهي كانت في الأصل "محاظر" نصرانية تدرس الرهبان قبل أن تنفتح بالتدريج على العلوم الأخرى. وهي ما تزال تعطي مكانة مهمة و خاصة لعلوم اللاهوت المسيحي.

تخريج مواطن مطيع

سجلتني أمي في المدرسة الابتدائية في سن السابعة. كان أبي يفضل اتباع عادة الأسرة حينها في تأجيل التحاق الطفل بالمدرسة النظامية حتى يتم القرآن الكريم. ولكنه غُلِبَ بسبب مجتمع أصبح يرى في المدرسة النظامية وسرعة الالتحاق بها شرطا أساسيا للنجاح.

مرت السنتان الأولى والثانية بشكل جيد فيما يخصني. ومع ذلك لم تكن المدرسة ممتعة

بسبب اعتماد الأساتذة على عقلية الضبط والعقاب للتحكم في التلاميذ. وذلك بسبب الضغط الممارس عليهم من الإدارة ليقل الغياب ويتم إكمال المقرر في الوقت المحدد لذلك.

كانت المدارس جزءا من الخدمات التي تسيطر عليها الدولة بحزم إداري شبه عسكري. يوم 16 شتمبر تفتح المدرسة أبوابها ويجب أن يكون التلاميذ والأساتذة في فصولهم. لا مجال للتراخي والتهاون فمدير المدرسة شخص له هيبة وهو حاضر للتأكد من أن كل شيء يسير وفق ما هو مخطط.

زيارة المفتشين تجربة مرعبة للأساتذة فتجدهم يعدون لها أشد ما يكون من الإعداد. ويومها يرى التلاميذ أستاذهم يتحول إلى تلميذ يكاد يرتجف خوفا من حصول خطأ منه أو من التلاميذ الذين تدربوا جيدا على إنجاز "الدرس النموذجي" على أحسن وجه.

لم يكن التعليم يشتغل بعقلية جلب المنفعة للمجتمع وتربية التلميذ وتهيئته ليكون شخصا يفكر بحرية وبعقلية نقدية ويبحث ويبدع. وإنما كان التوجه لإخراج شخص منضبط يطيع ويخاف وينجز ما هو مطلوب منه، ولو على المستوى الشكلي فقط.

لذلك بمجرد ما رفع عن التعليم العام نظام الضبط المتشدد، بسبب توسع الحريات العامة، وتراجع سلوك التسلط الإداري تحول بالتدريج إلى فضاء للتسيب.

في شتمبر 1983 التحقت بالسنة الثالثة الابتدائية. هذه المرة أصبح لدينا معلم ومعلمة. معلمة للفرنسية والرياضيات ومعلم للعربية وباقي المواد. وكانت الرياضيات والمواد العلمية تدرس بالعربية.

كنت على موعد مع تجربة سيئة مع معلمة الفرنسية.

معلمة شبيحة

خلال العطلة الصيفية سنة 1983 كنت أعد للسنة الثالثة التي تبدأ معها دراسة الفرنسية. كنت أسمع من الكثيرين التحذير من أن "القسم الثالث واعر" و"واعر" بالدارجة والحسانية تعني "صعب."

ولذلك حين زارنا الخال محمد سالم إنجيه قادما من كلميم حيث يَدْرُس بالثانوي حينها، حرص على تخصيص وقت لتعليمي قراءة الحروف اللاتينية. وقد تعلمت قراءة الحروف بصيغتها الكبيرة على الأقل. وكنت متفائلا بذلك وأنا أدخل القسم لأول مرة في شتمبر.

تفاؤلي تبخر في أول حصة. دخلت المعلمة القسم بخطوات عسكرية وبدأت إجراءات صارمة سنعيش على وقعها طوال السنة الدراسية.

صنفت التلاميذ وحددت لهم مقاعدهم. واختارت مجموعة من التلميذات ليكن مساعدات لها أو كما سيتضح سريعا ليشتغلن شبيحات معها.

بثت المعلمة في القسم حالة من الصدمة السريعة فقد أعلنت قواعدها الخاصة: كل الأخطاء تعاقب بـ "التحمال" وهو يتم بأن يستلقي التلميذ على ظهره ويرفع رجليه وتقوم الأستاذة بضرب باطن الرجلين بالعصا عددا من الضربات بحسب الخطأ المرتكب.

شاهدنا أول ضحية لهذه العقوبة ونحن في حالة من الرعب. فالمعلمة تقوم بها بطريقة مختلفة عن باقي المعلمين. فهي تطلب من واحدة من شبيحاتها ربط رجلي الضحية على مستوى منتصف الساق بحزام وشده بإحكام من طرف الشبيحة لمنع المعاقَب من تحريك قدميه ومحاولة تهريب إحداهما من الضربة أو تخفيف أثرها بمباعدة القدمين أو جعلهما على مستوى متفاوت بثني الركبة.

كان مشهدا مهينا ومؤذيا يعاني منه المعاقب وكل تلاميذ القسم بسبب صرخات الضحية. وكان الأذى النفسي أشد من العقوبة البدنية لما يصحب إعداد الضحية للعقاب من نهر ووعيد.

هذا السلوك المتناقض بشكل كامل مع سلوك والدي في تعليمي العربية، وهو الذي لم يكن يستخدم الضرب والتعنيف أبدا، خلق حاجزا نفسيا بيني وبين اللغة الفرنسية المفروضة في محيط لا يتكلمها ولا يأبه بها. فالصحراء كانت مستعمرة من إسبانيا ولم يكن للفرنسية فيها حضور في الإدارة والتعليم. لكنها فرضت في إطار ثوابت المغرب الوحدوية التي لا تسمح بأي اختلاف بين المدن والأقاليم في سوى الثروة ومستوى الخدمات والبنية التحتية.

تحولت الدروس في نظري ونظر كثير من التلاميذ إلى حصة سجن وتعذيب نحاول أن

تمر بأقل قدر من المعاناة. الأستاذة كانت تتكلم أصواتا غير مفهومة لنا. وبالنظر إلى حرص المعلمين على أن يشرحوا الفرنسية بالفرنسية تطبيقا لقاعدة الحد الأدنى من استخدام العربية والدارجة فالأمر كان أشبه بصوت مسجلة أثناء "أكلها" لشريط كاسيت وهي مشغلة على مستوى الصوت الأقصى.

حصص ضائعة

لم أستفد خلال الأقسام الثالث والرابع والخامس ابتدائي والأول إعدادي من حصة الفرنسية إلا قليلا. تَكَوَّن بيني وبينها حاجز نفسي. لم تكن طريقة التدريس ممتعة. وكانت وتيرة سرعة المقررات أكبر من أن يتمكن التلاميذ من مجاراتها.

كنت أبلي بلاء حسنا في الرياضيات وكانت تدرَّس من طرف معلم الفرنسية في أقسام الابتدائي. وكان تدريسها يتم بالعربية. ثم أتحول إلى صنم خلال شرح دروس اللغة الفرنسية.

في السنة الأولى إعدادية أصبحت الفرنسية مادة مستقلة وتوزعت كل مادة لتدرس من طرف أستاذ خاص بها.

كان أستاذ الفرنسية شابا متحمسا. وقد ساءه أن أكون الأول على القسم في كل المواد غير مادته. وناقشني في الموضوع وحاول تحفيزي. بينما كانت في القسم تلميذة من عائلة فرانكفونية هي الأولى في قسم الفرنسية ومتوسطة الأداء في باقي المواد. وربما تكون لغة التدريس سببا في ذلك في حالتنا معا. فتدريس المواد الاجتماعية والعلمية بالعربية كان مريحا لي و مزعجا لزميلتي التي تتحدث الفرنسية مع عائلتها في البيت كعلامة على الرقي الاجتماعي.

ولم تكن تلك علامة الرقي الوحيدة. فالتلميذة بنت ضابط في الجيش وكانت سيارة عسكرية تأتي بها إلى الإعدادية وتأخذها منها إلى البيت. وبالتالي فلم يكن يليق بها إلا أن تتحدث الفرنسية وتتفوق فيها.

لم أكن مرتاحا في المدرسة. وكان ذلك يزعج الوالد. لم يكن أبدا يسأل عن العلامات التي أحصل عليها. وحين أخبره أني الأول على القسم كان يقول "طبعا، ستكون الأول." كان لديه تقييمه الخاص المبني على ملاحظاته المباشرة لما أقرأه ولنوع الأسئلة التي أطرحها عليه وتفاعلي مع ما

يشركني فيه من قصص وقصائد ومقامات.

ذات يوم من السنة الرابعة ابتدائي أخذني معه إلى المدرسة وأخبر الإدارة بأنه يريد سحبي من الدراسة.

في اليوم التالي أعادتني الوالدة إلى المدرسة مرورا بنفس المدير.

ولكن في نهاية السنة الأولى إعدادي (تعادل السنة السادسة ابتدائية حاليا) غلبت إرادة الوالد فانقطعت عن الدراسة النظامية لحسن الحظ.

فتحت الدراسة في البيت أمامي فرصة السير بسرعتي الخاصة والدراسة بطريقة ممتعة وليس من أجل الامتحانات. وقد حصلت على الباكلوريا متأخرا عن زملائي بسنة واحدة.

كنت في سن 13 حين غادرت الإعدادية. ولكني كنت مطمئنا حينها لكوني لا أغادر الدراسة. وقد كان عدد من نماذج الأشخاص الناجحين من حولي ممن درسوا في المحاضر التقليدية أو بشكل عصامي من أسباب تأكدي من سلامة اختيار الدراسة من البيت.

محاولة أولى لتعلم الفرنسية

شتمبر 1987 كنت خارج الدراسة النظامية. كانت أمامي ثلاث سنوات قبل امتحان شهادة الدروس الإعدادية (أحرار).

كنت أعمل في المكتبة مساعدا للوالد. وتيرة العمل في غير شهر الدخول المدرسي (شتمبر) كانت منخفضة. وهو أمر أتاح لي استغلال الوقت في إنجاز الدروس.

حافظت على صلة منتظمة بعدد من زملائي التلاميذ. ولأن سيدي إبراهيم خي (نائب برلماني لاحقا) يسبقني بسنة دراسية فقد كنت آخذ من عنده دفاتر الدروس في نهاية السنة لأستفيد منها.

كانت متابعتي للدراسة على هامش العمل مسألة اختيارية بحتة. لم يكن هناك أي ضغط من العائلة في هذا الموضوع.

كنت أتابع على يد الوالد دروسا في النحو والفقه وهذا ما كان يهمه. وكنت أستفيد من المذاكرة معه ومن المواضيع التي يثيرها معي أو مع أصدقائه والتي تجعل مجلسه مدرسة دائمة.

بدأت التفكير في حل مشكل اللغة الأجنبية. فهي عقبة في طريق تحقيق نتائج جيدة في أي امتحان لاحقا. والمعرفة بالفرنسية مهمة في بلد تعتمد الإدارة والقطاع الخاص فيه عليها بشكل يعوق من لا يعرف منها قدرا معقولا.

فكرت أن من المفيد أن أتمكن من فهم نشرات الأخبار الفرنسية والأفلام الأجنبية التي لم تكن متاحة في التلفزيون إلا مدبلجة لهذه اللغة. وكانت نسبة مهمة من منشورات الصحافة المتاحة في السوق فرنسية أيضا.

أمضيت سنة أو أكثر أحاول أن أستدرك المعرفة التي ضيعت فرصتها في القسم بالفرنسية. لكني كنت أدور في حلقة مفرغة. كنت أعتمد على نصائح أصدقاء وبعض رواد المكتبة ومساعدتهم. ولكن النتائج كانت محدودة. يوصي البعض بدراسة النحو وحفظ تصريف الأفعال. ويقترح آخر نصوصا قصصية تبدو لي معقدة وغير ممتعة بسبب كثرة ما تتضمنه من كلمات أحتاج المعجم لشرحها.

كنت واحدا من عشرات أو مئات الآلاف ممن يحاولون إجادة لغة أجنبية بدون نتائج واضحة. الكل يريد تعلم لغة أجنبية، وهي رغبة تستفيد منها مدارس اللغات وبسببها تباع كميات هائلة من كتب تعليم اللغة والمعاجم ولكن القلائل يصلون لمرحلة إجادة اللغة بدرجة تسمح بالاستفادة منها في التواصل والتعلم والعمل.

شعرت بوجود خطأ جوهري في طريقة محاولتي تعلم الفرنسية. كان الحاجز النفسي قد اختفى. لكن المنهجية التي أتبعها لم تكن مجدية. فكرت في الأمر طويلا قبل أن أصل إلى حل حاسم مكنني من دراسة الفرنسية وفتح لي باب دراسة الإسبانية والإنجليزية بالاعتماد على المقررات المدرسية والمعاجم ودون حاجة للالتحاق بمدرسة.

تفاصيل الطريقة ربما تجيب على تساؤل كثيرا ما يطرح علي بخصوص: كيف نتعلم لغة أجنبية؟

اللغة والسُّلّم

انتبهت إلى التخبط الذي عانيته مع محاولة تعلم الفرنسية لأكثر من سنة بعد مغادرة المدرسة النظامية، وتأملت فيه وخلصت إلى أن العناصر التالية ضرورية لتحقيق نتائج:

- التدرج: السلم يصعد درجة درجة وبدءا من الدرجة السفلى
- الانتظام: لا بد من انتظام صارم مشابه لانتظام طلبة المحاضر
- التكامل: بين أنشطة القراءة والاستماع والكتابة والتحدث
- المتعة: لا يمكن التعلم من نصوص صعبة لا تحقق متعة

كانت الخطة أن أبدأ مقررات الفرنسية النظامية من بدايتها بحيث أصل إلى مستوى مقررات الثانوية في الوقت المناسب لاجتياز الباكلوريا.

ولأن الفرنسية كانت تدرس من الثالث ابتدائي وكان مقررها موحدا في المغرب فقد رأيت الاعتماد على المقررات مع إنجاز كافة التمارين المطلوبة.

وقد قسمت الزمن على النحو التالي:

مقرر الثالث ابتدائي: شهر واحد

مقرر الرابع ابتدائي: شهران

مقرر الخامس ابتدائي: 3 أشهر

مقرر الأول إعدادي: 4 أشهر

مقرر الثاني إعدادي: 4 أشهر

مقرر الثالث إعدادي: 4 أشهر

على أن تكون السرعة عادية بدءا من مقرر الأولى ثانوي، أي سنة لكل مقرر.

حددت لهذا البرنامج ساعتين كل يوم بدون استثناء نهاية الأسبوع أو أيام الأعياد.

كنت معتادا على استخدام المعجم العربي فأضفت عادة استخدام المعجم الفرنسي العربي ثم الفرنسي لاحقا. والاستخدام هنا منتظم ويتم للتأكد من معنى كل كلمة جديدة. وربما يكون عدة مرات في اليوم.

إنجاز التمارين جزء أساسي من عملية تعلم اللغة، وكلما كانت التمارين يسيرة كان إنجازها ممتعا مفيدا وهذه واحدة من مزايا التدرج.

والاستعانة بالآخرين كلما واجهت صعوبة كانت متاحة لأن المكتبة يزورها تلاميذ وأساتذة كل يوم. وبعضهم كان يندهش من رؤيتي أشتغل على مقررات مخصصة للأطفال.

أعطت هذه المنهجية أكلها بشكل جيد. فبناء رصيد لغوي على أساس سليم يسمح بتذوق نصوص القراءة ويسهل تعلم النحو بالذوق وموسيقى اللغة قبل تعلم القواعد.

هنا لا بد من أن أفصل بعض الشيء في القواعد المذكورة أعلاه أي التدرج، الانتظام، التكامل والمتعة.

القفز على السلم

أَحْضِر سلما به 12 درجة وأَسْنِدْه إلى الحائط بزاوية مستقرة وآمنة.

الآن حاول أن تبدأ صعوده من الدرجة السادسة مباشرة. وإذا كنت ذا عزم فلم لا تحاول البدء من الدرجة العاشرة أو الثانية عشرة رأسا. وحتى لو حاولت البدء من الدرجة الرابعة أو الثالثة فسيكون في الأمر مخاطرة ومشقة.

الطبيعي أن تمسك جانبي السلم بيديك وتصعد درجة درجة بهدوء وتوازن.

هذا ينطبق على مجهود تعلم اللغة أيضا. المريح والمعقول أن تبدأ بشكل متدرج وأن تكون النصوص والتمارين التي تشتغل عليها سهلة ومفهومة وأن تنتقل منها إلى ما هو أعلى مستوى بعد ضبطها بشكل تام. ثم تنتقل بعد ذلك لما هو أعلى وهكذا بحسب الوتيرة والوقت المخصص للدراسة وبحسب الهمة أيضا.

الذين وضعوا مقررات الفرنسية في المغرب أرادوا أن يُحْسِن التلميذ المغربي لغة المستعمر

السابق كما يحسنها التلميذ الفرنسي. ولذلك وضعوا مقررات بإيقاع سريع يفترض أن التلميذ يراكم رصيدا لغويا كبيرا في وقت وجيز ويقوم بما يكفي من التمارين ليضبط القواعد.

والنتيجة هي أن التلميذ تفوته الحلقة الأولى ثم الثانية وتصبح الحلقات الموالية بمثابة ألغاز مزعجة. والأستاذ مطلوب منه أن ينهي المقرر وليس عنده مجال تصرف مرن ليتعامل مع واقع تفاوت ضبط التلاميذ للغة وحاجتهم لدروس تستدرك ما فاتهم في الأقسام السابقة. بل وحاجتهم قبل ذلك للتصالح نفسيا مع اللغة الأجنبية إذا كانوا لا ينتمون للنخبة الفرنكفونية التي باعت العربية واشترت بدلا منها الفرنسية في واحدة من أخسر صفقات العمر.

ينجح التلميذ في القفز من مستوى دراسي إلى الذي يليه بفضل نتائج مواد تغطي على مواد أخرى، وفي هذه الحالة تمكن التغطية على ضعف الأداء في الفرنسية، وهذا ما حصل معي بين القسم الثالث ابتدائي والأول إعدادي. أو بالغش، وقد صار حقا مكتسبا وتطورت أساليبه وتعددت. أو بالتساهل من الأساتذة تجاه وضع معقد ومستحيل. فهم أنفسهم يدركون أن السياسة التعليمية مختلة وغير مقنعة وأن عليهم مساعدة التلميذ في تجاوز القسم. وربما تساهم حاجة الحكومة والإدارة لإحصائيات جيدة في دفع آلاف التلاميذ من قسم للذي يليه بدون مستوى تحصيل ملائم في مجمل مواضيع التعلم.

لذلك، لو قرر تلميذ في السنة الثالثة إعدادي مثلا أن ينتبه لدروس الفرنسية وأن يُحَسِّن أداءه فيها، فسيجد نفسه يحاول القفز إلى الدرجة التاسعة في السلم مرة واحدة، فالدرجات السابقة فاتته.

وطبعا، مهما كان عزم التلميذ ورغبته وجده فستكون محاولته ضربا من المستحيل. فنصوص المقرر عالية المستوى قياسا لرصيده اللغوي والتمارين غير مفهومة. ولا سبيل لاستدراك ما فاته إلا بالعبور بدرجات السلم السابقة واحدة واحدة. لكن لا أحد من الأساتذة لديه الوقت للعمل على هذا التصحيح الجوهري.

وبسبب ما سبق اضطرت المؤسسات التعليمية لتبسيط امتحانات الفرنسية لكي لا تكون نتائج التلاميذ كارثية ومحرجة. ويمكنني الادعاء أن تلميذا يضبط مقررات الابتدائي كاملة بشكل تام يمكن أن يحصل على المعدل في امتحان الفرنسية لمستوى الباكلوريا!

مقررات الفرنسية

أتممت مقرر الثالث ابتدائي للفرنسية خلال شهر أي ستين ساعة دراسية. كان عملا سهلا وممتعا. كان المقرر يتكون من كتاب للقراءة وكتابين للتمارين وكان اسمه (بخطوات كبيرة). وفعلا كانت الخطوات كبيرة ومنتظمة.

تعلم اللغة يشبه جري ماراتون ولا يمكن أن يكون عدوا لمسافة قصيرة.

إجادة لغة عملية معقدة تشتغل فيها الذاكرة واللسان واليد والسمع بشكل منسق لتكوين الذوق الملائم والرصيد اللغوي الكافي لاستخدام اللغة بطريقة مقبولة.

لم أجد صعوبة مع النطق فقد تعلمته في المدرسة بسبب التركيز الشديد عليه من طرف المعلمين.

يتكلف المعلمون في المغرب تعليم التلاميذ نطق الفرنسية بلكنة باريسية نقية. ولذلك عانينا مع حروف العلة الغريبة وما فيها من تنوع وإمالة. وكذلك مع الإدغام وحالاته الكثيرة. ومع الحروف التي لا تنطق برغم كتابتها. فالتلميذ المغربي يدفع ثمن اختلال المنطق لدى من وضعوا قواعد الفرنسية قبل بضع مئات من السنين.

ويؤدي التركيز على سلامة النطق وحفظ تصريف الأفعال في أزمنة التصريف الفرنسية الكثيرة للتفريط في بناء الرصيد اللغوي وتمارين إبداع الجمل والتواصل. ويحول درس اللغة إلى حصة تعذيب لدى التلاميذ الذين ضيعوا خيط التحصيل السليم بشكل مبكر.

انتقلت لمقرر الرابع ابتدائي وكان من نفس السلسلة ويتكون من كتاب قراءة وكتابي تمارين. وأنجزت حصصه بالكامل مع إتمام التمارين. ومع كل كلمة جديدة كنت أرجع للمعجم الفرنسي العربي لضبط معنى الكلمة. ومن ثم أستخدمها في عدد من الجمل لتثبيتها في الذاكرة. أنهيت مقرر السنة الرابعة في شهرين أو 120 ساعة تقريبا.

مع مقرر السنة الخامسة بدأت ألمس بعض الصعوبة بسبب كثرة التمارين والحاجة لإنجاز فقرات أو نصوص إنشاء. ولكني أكملت المقرر خلال الفترة المحددة وهي ثلاثة أشهر. وبإنهائه بدأت أفهم قدرا مما أسمعه في الإذاعة وبدأت تصفح المجلات والجرائد الفرنسية وقراءة القصص.

من شأن الانفتاح المكثف على محتوى باللغة التي نتعلمها أن يساعد في تسريع التقدم. وفي نهاية الثمانينات كان المتاح هو الأفلام والبرامج على قناة التلفزة المغربية وكانت حريصة على أن يكون جزء كبير مما تقدمه فرنسيا وفاء لقاعدة غير مكتوبة تحكم كل الإعلام الرسمي. وكانت الجرائد اليومية المغربية باللغة الفرنسية تحظى بتوزيع لا بأس به. وكل من يحمل بيده نسخة من جريدة (لوماتان) أو (لوبينيون) كان يعد نفسه مثقفا. وإذا كان ممن يشتري مجلة (جونافريك) أو (سيونس إي في) أسبوعيا أو شهريا فهو من علية القوم.

تحول الانتظام في الدروس إلى عادة أتضايق من تركها أو تأخرها. وبالمران تزداد قيمة ساعات الدراسة لارتفاع مستوى التركيز خلالها. واستخدام المعجم بشكل متكرر يؤدي إلى الوصول إلى الكلمة المطلوبة خلال بضعة ثوان.

وتزداد متعة تعلم اللغة مع التمكن من الاستفادة من نصوص أدبية أصلية، أي نصوص لم يدخل عليها أي تبسيط. وسواء كانت شعرا أو نثرا فهي مما يحبب ويسهل مجهود التعلم ويبين جدواه.

مضت الخطة بسلاسة وأتممت بدرجة إجادة متفاوتة مقررات الإعدادي الثلاثة خلال سنة، ووصلت إلى السرعة الطبيعية لإنجاز مقرر الثانوي بإتمام مقرر واحد كل سنة.

أدومها وإن قل

يحفظ بعض الشناقطة آلاف القصائد الشعرية العربية والحسانية. وقد سألت بعضهم عن سر ذلك فإذا هم بدؤوا صغارا، وبتوجيه من محيطهم بحفظ بيت واحد أو اثنين من الشعر والحصول على مكافأة مقابل ذلك.

الدوام هو السر في التحصيل العلمي كيفما كان نوعه. والدوام يقتضي الانتظام ولو كانت الحصص قصيرة. وفي هذه الحالة لا تنفع حملات الحماس الفجائي التي يتبعها خمول واستسلام.

يشبه الأمر بناء حائط كبير من خلال وضع لبنات صغيرة بطريقة صحيحة ومنتظمة وتثبيتها جيدا. لو نظرنا إلى كل لبنة على حدة ثم تأملنا الحائط فربما نستغرب كيف تكون الحائط

الضخم من هذه القطع.

هكذا الأمر في تعلم اللغة. هو سباق مسافات طويلة يحتاج صبرا ودأبا وانطلاقة معقولة وبوتيرة تمكن المحافظة عليها.

أمضيت 18 شهرا متصلة في دراسة مقررات الابتدائي والإعدادي للغة الفرنسية بمعدل ساعتين كل يوم. لا يمكن أن أقول إني ضبطت مقررات الإعدادي بشكل تام، ولكني حصلت على ما يكفي من المعارف في نهاية المدة للتمكن من قراءة الجرائد والمجلات والروايات والاستماع للإذاعة ومتابعة الأفلام بمستوى مريح من الفهم.

إتقان لغة أجنبية واحد من أصعب الأمور. ولا أظنه أمرا يليق أن نطلبه من كل الناس. بل هو وسيلة لغايات أخرى يجب أن تكون واضحة. وهذا يقتضي أن يعرف الطالب سبب دراسته للغة أجنبية والأهداف التي يريد تحقيقها من وراء ذلك.

وأسخف الأسباب دراسة اللغة من أجل اجتياز امتحان. الذهن لا يقتنع بهذا الهدف المؤقت وبالتالي لا يتجاوب بالتركيز والاهتمام الكافي وتكون النتيجة بذل جهد متعب بلا مردود.

وضعت نصب عيني هدف التمكن من قراءة كتب الأدب الفرنسي والصحافة الفرنسية وفهمها بشكل جيد.

ولم يكن ليتحقق لولا الانتظام شبه العسكري في احترام إنجاز الحصة اليومية. بعد 18 شهر خفضت الحصة إلى ساعة واحدة يوميا والتزمت بها حتى اجتياز الباكلوريا.

يأتي الانتظام نتيجة الاهتمام وليس نتيجة وجود وقت فارغ. فالاهتمام بأمر يجعلنا نفرغ له الوقت. ومثال من يتابعون مباريات فرقهم المفضلة على كثرتها، ويتابعون إعادتها والتعليق عليها وهم في غاية الشغل بدارستهم وأعمالهم جيد للتأمل.

يرتب مناصر فريق كروي برنامجه بحيث لا تفوته المقابلة. أي أنه ينهي أعماله قبل وقت المقابلة. وهكذا يفعل من لديه برنامج تعلم جدي: يفرغ من شواغله من أجل حصة التعلم ويركز ذهنه فيها بشكل كامل.

يوما بعد آخر تتوسع شبكة المعارف باللغة وتأخذ كل كلمة وقاعدة جديدة مكانها بيسر. ويصبح بإمكان المتعلم أن يستنتج المعاني من خلال السياق. ويحدد المعنى المقصود إن تعددت دلالات الكلمة. ويميز المعاني المجازية والصور البلاغية والإحالات الثقافية.

في مستوى الثانوي استخدمت كتابا تكميليا من ثلاثة أجزاء يسمى (الدروس التطبيقية للغة والحضارة الفرنسية) وعنوانه يدل على الارتباط الوثيق بين دراسة لغة والاطلاع على حضارة أهلها. وهنا يكون من الضروري أن نتعلم لغة أجنبية بعد إجادة اللغة أو اللغات الأم وليس قبل ذلك. وأن تكون اللغات الأجنبية إضافة وليست بديلا وتعويضا عن اللغة الأم.

التمرن جوهري

تتحسن المعرفة باللغة من خلال أنشطة أربعة، اثنان منها استهلاك واثنان إنتاج:

الاستماع

القراءة

التحدث

الكتابة

وهي أنشطة يتعين على المتعلم أن يوزع عليها وقته. بل إن كل حصة تعلم ينبغي أن تتضمن شيئا من الأنشطة الأربعة. وتكامل القيام بها يعطي نتائج أفضل في مستوى الفهم والتعبير.

وربما يميل المتعلم بمجهود ذاتي لنشاطي الاستهلاك فهما يتطلبان جهدا أقل في التركيز والانتباه. يمكن أن تقرأ وتستمع بدون صرف انتباهك بالكلية إلى النص الذي تقرؤه أو تسمعه. لكن يصعب أن تتحدث وتكتب بدون انتباه.

ويتعين استخدام الكلمات الجديدة في جمل وفقرات شفهية ومكتوبة لتضمها لرصيدك اللغوي بشكل دائم.

وحسب التجربة فاستخدام كلمة جديدة في تركيب عشر جمل يثبتها في الذاكرة بشكل دائم.

في مراحل متقدمة من دراسة اللغة لا يحتاج المتعلم لهذا النشاط لأنه يفعله بدون وعي بسبب تعقيد شبكة معرفته اللغوية وترابطها، فتحل الكلمات الجديدة في مكانها في الذاكرة بيسر بسبب علاقتها بكلمات وتعابير أخرى.

يشبه الأمر تثبت مسامير في لوح خشبي. كل كلمة جديدة هي مسمار. ولا يمكن دق المسمار بدون مطرقة. والمطرقة هنا هي استخدام الكلمات في إنشاء جمل وفقرات.

نشاط الاستماع مرتبط بالتحدث، ويلزم استخدام كل فرصة متاحة للتواصل باللغة التي نتعلمها. واليوم تتعدد فرص استخدام اللغة بسبب وسائل التواصل الاجتماعي التي لم تكن متوفرة عندما كنت أتعلم الفرنسية والإنجليزية والإسبانية.

حينها كان الحصول على أشرطة كاسيت تعليمية شيئا عظيما. وكان المذياع والتلفزيون من أهم وسائل الحصول على مواد باللغات المذكورة.

وقد كنت أحرص على الاستفادة من كل من يدرس بأقسام اللغات في الجامعة حين أصادفهم.

الرصيد اللغوي الذي نفهمه أو سع وأكبر دائما من الرصيد الذي يمكننا استخدامه. ولذلك يمكن للكثيرين منا فهم قصيدة عربية جيدة. لكن كم منا يستطيع كتابة واحدة؟

لتوسيع الرصيد الذي نستخدمه لا بد من التمارين. لا بد من الحديث باللغة ولو مع النفس. ولا بد من تمارين كتابية مكثفة.

أذكر هنا أني وجدت صديقي كمال الطيبي قد رتب على نفسه كتابة عشر فقرات ونص إنشائي تام وتعلم عدد من الكلمات الجديدة (لا أذكر هل كان عشرة أو 30) كل يوم حين كان في سنته الثانية بشعبة الأدب الإنجليزي بالرباط. وقد استفدت من خطته هذه وحاولت تقليدها. ولكنها صعبة للغاية. فهي تعني أنك تتعلم آلاف الكلمات خلال السنة. وتكتب مئات النصوص. وطبعا، لا بد للإنجاز الجيد من ألم التمرن. تماما كما هو الحال بالنسبة لرياضي محترف.

ترجيح دراسة الانجليزية على الفرنسية

استفدت من نجيب محفوظ، الروائي المصري، أهمية دراسة الأدب الإنجليزي لمن يهتم بالأدب. وكنت خلال سنوات الثانوي أفكر في دراسة الأدب الفرنسي في الجامعة.

درس نجيب محفوظ التاريخ في الجامعة. وكانت أول كتبه في التاريخ الفرعوني: كفاح طيبة، رادوبيس، مصر القديمة.

ثم تحول إلى الرواية. وظل تأثره بالفراعنة وتقديره لهم عظيما. وقد كتب في آخر حياته رواية "أمام العرش" وتخيل فيها حكام مصر يعرضون على "إيزيريس" وهو يصدر فيهم أحكامه. وربما كان الغرض من الرواية أن يبين محفوظ وجهة نظره في حكام مصر، وربما كانت تعبيرا عن تمسكه بـ "عقيدته الفرعونية".

ندم محفوظ لأنه لم يدرس الأدب الإنجليزي، وجعل ابنتيه معا تدرسانه في الجامعة. وبعد فوزه بجائزة نوبل للآداب بعثهما لاستلامها وتنظيره في الحفل فهو لم يكن يطيق السفر بالطائرة مطلقا لشدة خوفه منها. ولعله لم يسافر بها في حياته قط.

وعملا بنصيحة الكاتب التي قرأتها في حوار مطول له مع أحد الصحفيين سجلت في شعبة الإنجليزية بجامعة الرباط سنة 1995 و درست بها حتى الحصول على الإجازة سنة 2000.

لعب لغوية

كان الفرق شاسعا بين القصص التي يحكيها لي الوالد وبين النصوص التي نتعلمها في المدرسة.

كان أبي يحكي لي قصصا من تراث العرب وأساطيرهم، وغالبا ما تتعلق بحيوانات وأمثال. وكان يرفقها بالشرح المبسط حتى أفهم.

بالمقابل كانت نصوص القراءة في سنة روض الأطفال من قبيل "بابا ... بوبي..." وفي المدرسة الابتدائية كانت نصوصا ميتة بلا روح، كتبها مؤلفون لا إبداع لديهم مع إهمال تام لنصوص الأدب العربي التي تراكمت لأكثر من 15 قرنا والتي يتاح لهم أن يختاروا منها الكثير.

بدون متعة تكون دراسة اللغة، سواء كانت لغة أما، أو لغة أجنبية، أمرا متعسرا ويصبح الجهد المبذول قليل الجدوى.

بالنصوص الجيدة نضمن تجاوبا وتفاعلا قويا وسريعا. ونضمن أيضا تطلعا للمزيد من النصوص وحرصا على الفهم وعلى الاطلاع على معاني المفردات الجديدة والتعابير المجازية.

من بين أول القصص التي حكاها لي الوالد قصة الأرنب والثعلب والضب وهي واردة في مجمع الأمثال للميداني:

زعموا أنَّ الأرنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا إلى الضب يختصمان. فقالت الأرنب: يا أبا الحسل! فقال: سميعا دعوت. قالت: أتيناك نختصم إليك فأخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت ثمرة. قال: حلوة فكليها. فقالت: فاختلسها مني الثعلب. قال: لنفسه سعى. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت. قالت فلطمني. قال: حر انتصر. قالت: فاقض بيننا! قال: قد قضيت!

وكل كلام الضب القاضي في القصة صار أمثالا سائرة وإن كان قضاؤه مشابها لقضاء زماننا في مسايرة الأمر الواقع والتماشي معه!

وإلى جانب القصص توجد تمارين وتحديات مثل محاولة تكرار البيت الشعري التالي ثلاث مرات متتالية بسرعة وبدون خطأ:

وقبر حرب بمكان قفر ...... وليس قرب قبر حرب قبر

وتدعي العرب أن الجن هي من قالت هذا البيت بعد أن قتلت حرب بن أمية (والد أبي سفيان رضي الله عنه) في الجاهلية. وكنا أطفالا صغارا يحاول بعضنا تحدي بعض لتكرار البيت ثلاث مرات دون خطأ، ولكن دون جدوى. فكيف لنا بذلك مع بيت أنشأته الجن. وهذا النوع من التحديات اللفظية مستخدم في الإنجليزية باسم (تونغ تويستر).

وقد أطلعني الوالد على لعبة التصحيف وهي تغيير نقط كلمة بحيث يتغير لفظها ومعناها. وعلى الكلمات والجمل التي تقرأ مقلوبة وقد أبدع الحريري في هذا الباب في المقامة المغربية التي تنافس فيها خمسة أشخاص لتركيب جمل تقرأ من جهتين، على أن تكون الجملة الأولى ثلاث

كلمات والتي تليها أربعا، وهكذا.

وكانت النتيجة هذه الجمل التي تقرأ جميعا من جهتينّ:

لُمْ أخاً ملّ

كبّرْ رَجاءَ أجْرِ ربّكَ

منْ يَرُبّ إذا برّ ينْمُ

سكّتْ كلَّ منْ نمّ لك تكِسْ

لُذْ بكلّ مؤمّلٍ إذا لمّ وملَك بذَلَ

وفي مقامات الحريري تحديات لغوية عديدة مثل رسالة كل حروفها غير منقوطة، ورسالة كلها حرف منقوط يليه حرف غير منقوط. وغير ذلك من إبداعات لغوية مفيدة ومسلية.

ولولا مشاركة القراءة مع الوالد ما اكتشفت ما تزخر به كتب العربية من محتوى ممتع. ولما تحولت القراءة لمصدر راحة وتسلية.

المعجم أولا وثانيا

تعلم لغة أجنبية ينبغي أن لا يأتي إلا بعد بناء أساس متين من اللغة أو اللغات الأم. وهذه هي الممارسة السائدة في البلدان التي تضع سياساتها التعليمية واللغوية بناء على اختيارات شعبية ومحلية وبعيدا عن إملاء موظفين مركزيين مستبدين.

أسبقية اللغة الأم مسألة لا تحتاج دفاعا ولا تبريرا. هي الطبيعة وهي المنطق. اللغة ثقافة وهوية ولا يمكن أن يكون استبدال لغة شخص وأسرة ومجتمع بلغة أخرى عملا يسوغ بضرورات الاقتصاد أو غيره.

وتنتشر بين مدرسي اللغة وتلاميذها فكرة عدم استخدام الترجمة والمعجم المزدوج. وأن من الأفضل تعلم اللغة الأجنبية بدون استخدام وساطة اللغة الأم.

وحسب تجربتي ودون ادعاء خبرة في تقنيات تعليم اللغة أجد هذا التقييد متعبا وغير منطقي.

استخدام المعجم ثنائي اللغة ساعدني كثيرا في دراسة الفرنسية والإنجليزية والإسبانية.وكان من فوائد المعاجم ما يلي:

- ضبط معنى الكلمة
- التأكد من معرفة مرادف الكلمة الأجنبية في اللغة العربية

- مقارنة الكلمات ذات الجذر نفسه في اللغات المنتمية لنفس الأسرة اللغوية الكبيرة (الفرنسية والإنجليزية والإسبانية كلها لغات هندية أوربية بتأثير لاتيني قوي) أو الأسرة اللغوية الفرعية (الفرنسية والإسبانية لغتان متفرعتان عن اللاتينية.)

- التوسع في معاني الكلمة (كل معجم يختلف عن غيره.)
- تحديد أقرب مرادف للكلمة المطلوبة عند الترجمة.

وللاستفادة من المعجم لا بد من قراءة المادة كاملة والتعامل بحذر مع معاني الكلمات. وأخذ أول معنى تصادفه و أنت تقرأ المادة دون أن تتمها قد يؤدي بك إلى ما وقع لواحد من شراح كتاب (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري. الشارح كان يستخدم معجما مبسطا أو يأخذ أول معنى يصادفه في معجم كلاسيكي. وحين صادف كلمة (حيزوم) في قصيدة الجني المذكورة في الكتاب والتي مطلعها:

مكة أقوت من بني الدردبيس ..... فما لجني بها من حسيس

إلى قوله وهو يصف شهوده غزوة بدر:

جاهدت في بــدر وحاميـــت في ..... أحد وفي الخندق رعت الرئيس

وراء جبريل وميكـــــــال نــــخـ ..... ـلي الهام في الكبة خلي اللسيس

حين جيوش النصر في الجو والـ ..... ـطاغوت كالزرع تناهى، فديس

عليهـــم فــــي هبـــوات الوغـــى ..... عمائم صفـــر كلـــون الوريـس

صـهيــل حيــزوم إلى الآن فـــي ..... سمعي أكرم بالحصان الرغيس

الشارح وضع في الهامش "الحيزوم الصدر". وواضح من السياق أن المقصود بحيزوم فرس جبريل. ولا يستقيم المعنى في البيت لو كان المقصود بالحيزوم الصدر.

فواعجبا من جرأة من لا يستطيع تمييز معنى سليم من معنى سقيم على شرح كتاب مثل رسالة الغفران.

وقد وجدت من المدرسين من يشدد على التلاميذ في عدم استخدام العربية مطلقا في حصة اللغة الأجنبية. وهذا يعقد عملية التعلم وينفر التلاميذ منها. التعلم ينبغي أن يظل مرنا وأن يكون القصد منه تسهيل تحصيل النتائج الجيدة وليس تحويل الحصص الدراسية إلى وقت مزعج.

المعجم من الكتب التي يجب أن تكون في كل بيت. وأن تستخدم بشكل منتظم. ويومي إن أمكن.

وحاليا تصدر نسخ جديدة من المعاجم المشهورة في الغرب كل سنة. ويقبل الناس عليها للاطلاع على ما استجد من الكلمات والمعاني. وللأسف نفتقد مثل هذه الحركية في صناعة المعاجم في العالم العربي.

وقد لاحظت خلال سنوات الجامعة أن كثيرا من الطلاب لا يتوفرون على معجم عربي في غرفهم. وكنت أسأل بعضهم فيجيب بأن الأساسي عنده بذل الجهد في تعلم الفرنسية وغيرها من اللغات الأجنبية وأنه إن اقتنى معجما فسيكون بتلك اللغات. وربما

يضيف أنه لا يرى بنفسه حاجة لمعجم عربي. وهذا غاية الجهل ونهايته. وهؤلاء في الغالب لا يحصلون العربية ولا سواها من اللغات.

استخدام المعاجم مفتاح لضبط اللغة الأم وغيرها من اللغات. ويمكن استخدام المعاجم الثنائية والرجوع لعدة معاجم لضبط كلمة واحدة. وفي ذلك فوائد عظيمة فلكل معجم منهجيته وطريقته. فبعضها موجز مختصر يقدم المعاني الأكثر استخداما وبعضها يتوسع ويطيل. ومنها ما يقتصر على اللغة منها ما يورد الأعلام. ومن المعاجم ما يقدم شواهد على استخدام الكلمة من مشهور الأدب، فتكون الاستفادة مضاعفة.

التفوق الدراسي ليس رهين لغة أجنبية

حين يزور الآباء مدارس خاصة في المغرب يجدونها تتنافس في إظهار قدرتها على تعليم الفرنسية و ربما حتى الإنجليزية للأطفال. و كيف أنها تستخدم مقررات مدرسية مجلوبة من فرنسا. و تخصص عددا مهما من ساعات التدريس للفرنسية ربما يزيد على الحصة المخصصة للعربية.

المدارس هنا تستجيب لأمرين:

- الصورة الذهنية الشائعة بأن إتقان الفرنسية مفتاح لتحقيق التفوق المدرسي عموما و الوصول لمدارس الطب و الهندسة خصوصا.

- صورة مدارس البعثات الفرنسية باعتبارها نموذجا يجب اتباعه و تقليده.

هل هذا التصور صحيح؟

لو كان كذلك لكان التلاميذ الفرنسيون الأفضل في العالم. فهم يتحدثون الفرنسية منذ الصغر و يتقنونها لغة و نحوا و مجازا ويقرؤون من آدابها و يشاهدون مسرحياتها و يتلقون بها العقيدة في الكنيسة (الكاتاشيزم). و لا يتعلمون معها من غيرها من اللغات إلا بمقدار لا يزاحمها و لا يساويها و لا يأخذ من حصتها. و مع ذلك تجد الهندي و الفيتنامي و البرازيلي يأتي إلى فرنسا و يدرس اللغة سنة واحدة يأخذ منها بقدر ما يناسب التخصص الذي سيدرسه في الجامعة ثم ربما تفوق على

زملائه الفرنسيين في نتائجه الدراسية في تخصصه.

و نفس الشيء ينطبق على الطلبة الأجانب الذين يتمون دراستهم في اليابان أو الصين أو ألمانيا بدون معرفة سابقة بلغة الدراسة قبل دراستها في البلد المستقبل.

التفوق الدراسي مرهون بعدة أمور من بينها استعداد الطالب و همته و حبه للمادة التي يدرسها. ولن يكون أبدا من شروط التفوق الدراسي أن تهمش دراسة لغة الطالب الأصلية مقابل أي لغة أخرى.

مسؤولية الأبوين عند التفريط في تدريس اللغة الأم

كتب محمد وسيم فرجاني وهو تونسي مقيم في كندا:

"كم أتألم ويعتصر قلبي عندما أرى كل صباح في مونتريال أما أو أبا مسلمين عربيين يخاطبان أبنائهما بالفرنسية...أسمع اليهود والصينيين والإيطاليين واليونانيين و الفلبينيين يتكلمون مع أبنائهم بلغتهم الأم ونحن نتجاهل أروع وأثرى لغة على سطح الأرض!!!"

تعليق:

التقيت في مونتريال شابا أبوه تونسي وأمه كندية وكان ناقما جدا على كون أبيه لم يعلمه أي شيء من العربية.

من الضروري أن تبذلوا جهودكم لتنبيه المهاجرين والناس في تونس لدرجة تمسك الجنسيات المختلفة بلغاتها الأم، وكم هو معبر عن عقدة نقص أن يتحدث الأب والأم لأبنائهما بغير اللغة الأم.

دراسة الإنجليزية

بدأت دراسة الإنجليزية يوم 1 يناير 1990. كنت خارج النظام الدراسي النظامي. وبالتالي كانت الدراسة كلها بالبيت أو بالمكتبة حيث كنت أعمل.

كنت في الخامسة عشرة من العمر. وبما أني قطعت مرحلة لا بأس بها من تعلم الفرنسية حينها فقد اعتمدت في البداية على مقرر فرنسي اسمه "الإنجليزية في تسعين يوما وتسعين درسا".

كان مقررا جيدا فهو يعتمد الانطلاق من نص يتبع بقائمة للكلمات الجديدة ومعانيها ودرس في النحو ثم تمارين. ولكن إتمام درس كل يوم لم يكن سهلا إلا بتخصيص عدة ساعات من اليوم. وكانت وتيرة الدروس وتعقيدها تتزايد مع التقدم فيها.

لم أكمل ذلك المقرر. ولكنه كان تمهيدا جيدا لدراسة مقرر الإنجليزية الخاص بثانويات الدولة.

مفتاح إجادة اللغة أمور:

- الانتظام وقد رتبته على نفسه بشكل صارم. ساعة للإنجليزية كل يوم التزمت بها خلال عشر سنوات على الأقل.

- التمارين وذلك يقتضي أن يكون القلم بيد الدارس والورق تحت يده لإنجازها. فالتمارين هي مفتاح دراسة اللغة شفهية كانت أو مكتوبة. وبدون التمارين أو بتمارين غير كافية لا تثبت الكلمات الجديدة في الذاكرة ولا تحصل ألفة مع استخدامها في تركيب جمل، ولا يتكون ذوق وموسيقى تمييز السقيم من المعتل من الكلام بالسليقة ودون حاجة لاستحضار القواعد.

- الاستعانة بالآخرين ممن لديهم خبرة أفضل.

والنقطة الأخيرة كانت مهمة للغاية باعتبار أن الإنجليزية تفتقد القياسية في النطق والكتابة.

وقد استفدت في تصويب ما أقرأ من أصدقائي من تلاميذ الثانوية. وأذكر أن قريبي عبد الفتاح وجدني أقرأ الجملة التالية I have a stomach ache ومعناها (تؤلمني بطني) هكذا (آي هاف أو ستومايتش أيتش) فضحك طويلا وصحح لي النطق إلى (آي هاف أو ستاميك أيك).

وغياب القياسية في الإنجليزية مما يصعب تعلمها ويعقده. ويجعلها تبدو غريبة بالمقارنة مع

لغات أخرى مثل العربية. ولكن لانتشار هذه اللغة وتعلق الناس بها فإنهم يغفرون لها كل عيوبها وينسبون الصعوبة في تعلمها لأنفسهم وليس لها.

لم تكن الموارد المساعدة في التعلم حينها بوفرتها اليوم. وكان الحصول على شريط تعليمي للغة ميزة عظيمة. والكثيرون كانوا يتابعون برامجا لتعليم الإنجليزية على إذاعة بي بي سي. لكنه كان أقرب إلى برنامج للتسلية منه للتعليم.

رب أخ لك لم تلده أمك

سجلت في شعبة الأدب الإنجليزي بكلية الآداب بجامعة الرباط سنة 1995.

فعلت لأني أحتاج تحسين معرفتي باللغة بطريقة نظامية. ولكن بسبب الارتباط بالعمل في العيون على بعد 1300 كيلو متر من الرباط لم يكن ممكنا لي حضور الدروس بشكل منتظم.

بناء عليه كنت في حاجة لطالب يتعاون معي في مدي بالمقررات وربما إرسالها إلي في العيون بالبريد. ومساعدتي في التعامل معها خلال التحضير للامتحانات.

بحثت في الفصل خلال الحصص الأولى وتعرفت على زملائي الطلبة ومدى اهتمامهم بالدراسة وانتظامهم في الحضور وجديتهم.

وأخيرا تحدثت مع نور الدين عمروس وهو شاب ريفي من مدينة الحسيمة. رحب بطلبي بكل ود. ومن تلك اللحظة بدأنا صداقة كنت الطرف المستفيد فيها أكثر طيلة خمس سنوات (أعدت السنة الرابعة) زودني خلالها بنسخ المقررات وساعدني في فهمها والتحضير لامتحاناتها.

كان نور الدين طالبا يحب المادة التي اختارها للدراسة ولم يكن من أولئك الذين جاؤوا للكلية مضطرين بسبب توجيه الأهل أو لمجرد أنه لا بد من الدراسة الجامعية.

وكان متفوقا في اللغة بشكل استثنائي مع أنها لغته الرابعة. فلغته الأم هي الأمازيغية الريفية، ولغته الثانية العربية والفرنسية والإنجليزية هما اللغتان الثالثة والرابعة. واللغات المذكورة تنتمي لثلاث أسر لغوية مختلفة وتستخدم ثلاثة خطوط مختلفة. مما يجعل نور الدين واحدا من آلاف الأشخاص رباعيي اللغة في المغرب. وهي ظاهرة فريدة.

وبسبب التفوق فقد كان يدرس وهو مرتاح. لم يكن يرتاع حين تقترب الامتحانات بل كان يحافظ على الابتسامة والاسترخاء خلافا للحالة التي تسود باقي الطلبة.

ومنذ الحصص الأولى تبين أنه أفضل دفعته. مما دفع عجوزا إيطالية كانت تدرسنا مادة "القراءة الموجهة" إلى أن تقول له بعد أن ألقى عرضا كلف به "إنني أرى أمامي أستاذا في هذه الجامعة."

كان حدسها في محله فبعد تخرجه سيصبح نور الدين أستاذا جامعيا للأدب الإنجليزي. وقبل ذلك كان أستاذي شخصيا طيلة سنوات الدراسة الخمس. وكانت شروحه وتوضيحاته تختصر في أيام ما تلقوه خلال سنة.

إنها صداقة عرفتني معنى "رب أخ لك لم تلده أمك". وهي صداقة تحدت مسافات الجغرافيا وفوارق الثقافة وبينت كم هو قريب الريف في أقصى المغرب من الصحراء في أعماق الجنوب.

تعريب وفرنسة

صيف 1992 عرف التلاميذ الحاصلون على باكلوريا علمية في المغرب أنهم سيدرسون الشعب العلمية بالفرنسية.

يمكن تخيل الصدمة التي تلقاها الكثيرون. فبعد نهاية "تعريب" المواد العلمية في المستويات الإعدادية والثانوية بنجاح قرر مسؤول ما في مكتب ما أن تلك اللعبة يجب أن تتوقف.

هل كان عجزا؟ أو تصرفا يناسب مشاكل التعليم الجامعي العميقة؟ أو استفاقة من قرار "التعريب" المناقض لتوجهات النخبة الفرنكفونية؟

خمسة وعشرون سنة مرت على ذلك القرار. نجح التعريب مع المرحلة الأهم والأخطر وتم إعداد مقررات مدرسية جيدة للعلوم في الإعدادية والثانوية. وبعد الباكلوريا يقفز الطالب قفزة لغوية بهلوانية من استخدام العربية وسيلة شرح وتدريس إلى استخدام الفرنسية التي يبدو أنها تناسب "البحث العلمي" أكثر، بدليل مساهمة المغرب في النشر العلمي وبراءات الاختراع السنوية وحصته من جوائز نوبل للفيزياء والكيمياء والطب والاقتصاد.

ولم يتجرأ صانع القرار في الرباط على "فرنسة" ما تم "تعريبه" فظل الحال "بين بين" مع حلول ترقيعية تتضمن تدريس الترجمة وتحقيق اختراقات محدودة بفرنسية المواد العلمية في الثانويات التقنية "لتحقيق الانسجام التعليمي".

بعض المدارس الخاصة تعلم التلاميذ المقررات العلمية بالعربية وتضيف لها مقررات فرنسية تختلف في لغتها ومحتواها. كأن التلميذ قادر على دراسة مقررين في الوقت نفسه. مصاريف إضافية ومجهود زائد لإرضاء غرور التفوق لدى إدارة المدرسة ولدى آباء يرتاحون لإحساس غير علمي بأن مستقبل أبنائهم سيكون أفضل كلما كانوا أشد فرنكفونية.

وفي ظل استمرار "مسؤول ما" في اتخاذ القرار بعيدا عن حاجيات الأقاليم المختلفة وبعيدا عن الفرع التشريعي وفي ظل غياب تشريع واضح في السياسة اللغوية يظهر أن أمر توقف "التعريب" حسم، وأن السياسة القادمة هي "فرنسة" المقررات العلمية كما فعلت موريتانيا. وكما تحاول الجزائر أن تفعل.

القانون بالفرنسية مقدم على القانون بالعربية

عند التحاقي بكلية الحقوق في الرباط سنة 1994 لاحظت أن طالب القانون بالعربية يقول إنه يدرس "الدروا[1]" و هي كلمة فرنسية تفيد حقوق أو قانون. و من يدرس القانون بالفرنسية يحرص على أن يخبرك بأنه في شعبة "الدروا أون فرونسي[2]."

دراسة القانون بالفرنسية قدمت للطلبة باعتبارها ميزة. و لم يكن الكل يجرؤ على التسجيل في القسم الفرنسي. و مع أن محتوى الدراسة نظريا واحد فإن مكانة خاصة حجزت للفرنسية مع نظرة دونية للغة الأم و لغة البلد الرسمية. نظرة تواطأ عليها الأكاديميون و الإداريون و الحكومة.

لم يكن ذلك غريبا حينها بعد سنوات من سيطرة إدريس البصري، وزير الداخلية، ذي التكوين الفرنسي. كان شخصا لا يُحسن الحديث بالعربية. و من جهل شيئا عاداه. و إذا كان نجح في مهمة فإنه نجح في أن يجعل شُعَبَ الحقوق و الآداب في الجامعات المغربية في الحضيض. لا علم و لا تربية.

طلبة الاقتصاد لم يكونوا يملكون نفس الاختيار. فالشعبة متاحة بالفرنسية وحدها. تسيير المقاولات و دراسة اقتصاد البلد و الإنتاج و البيع و الشراء لا يمكن أن تتم في البلاد إلا بالفرنسية. الأنشطة التي تمارس بالعربية مثل الزراعة الصغيرة و إدارة المحلات التجارية (الحوانيت) و البيع و الشراء العادي نظر لها على أنها خارج الاقتصاد و أنها لا تهم الحكومة و لا الجامعة.

كان الطالب يأتي من عائلة غير مُفرنسة، يسجل في قسم الاقتصاد و يجد نفسه فجأة يتعامل مع محاضرات فرنسية و مقرر فرنسي، من بينه مادة "الإبيستيمولوجيا"

[1] . دروا كتابة عربية لكلمة Droit الفرنسية و معناها قانون أو حق.

[2] . "دروا أون فرونسي" مقابل Droit en Francais.

التي يسبب اسمها وحده الرعب. الجامعة لا تعبأ بذلك في بلد يُقبل فيه التناقض باعتباره جزءا ضروريا من تسيير الأمور.

معظم طلبة الاقتصاد كانوا يعانون مع المواد النظرية التي يتطلب امتحانها كتابة نص. و كانوا يحاولون تعويض النقص بالتفوق في المواد التقنية كالإحصاء و المحاسبة. و عموما كانت دراستهم خالية من المتعة و بعيدة من تهيئتهم للمساهمة الفعلية في الاقتصاد.

يخرج معظم الطلبة بدبلوم إجازة لا يحمل معه أي مهارات عملية أو قدرة على التدبير و حل المشكلات.

و كان مستوى طلبة "الدروا آراب[3]" في الفرنسية يظهر خلال امتحان مادة "المصطلحات القانونية" و هي مادة تدرس بالفرنسية و امتحانها كان شفهيا.

معظم الأساتذة كانوا يعطون نقط مجاملة للطلبة مقدرين ضعفهم في لغة فرضت عليهم و لم يختاروها. و هناك أستاذ متشدد كان يشترط لإعطاء المعدل أن يسمع إجابة كيفما كانت. فهناك نسبة مهمة تنعقد ألسنتهم تماما خلال امتحان هذه المادة الكابوس و لا ينبسون ببنت شفة.

أهمية الاستفادة من الرصيد اللغوي للدارجة في التعليم

مما يضيق على الأستاذ والتلميذ في قسم العربية في المغرب، ظنُّ الأستاذ، والتلميذ يتبعه في ذلك أن الاقتصار على رصيد لغوي محدود، يُجْهل من حدده، أمر واجب.

وينطلق الأستاذ من مسلمة، لا أعرف من أين أتت، مفادها أن معظم الرصيد اللغوي في الدارجة بأنواعها والحسانية ليس من العربية.

[3] . "دروا أون أراب" مقابل Droit en Arabe.

علما أنه في نظام الثنائية اللغوية حيث توجد الفصحى واللهجة جنبا إلى جنب، لا تنفرد اللهجة برصيد لغوي خاص، وإنما تأخذ اللهجة من الفصحى أو تستعير من لغات أخرى.

وقد تخصص اللهجة معنى عاما أو تحوره. وفي الغالب تأخذ به كما هو.

وسأسوق عددا من الكلمات المستخدمة في الحسانية والدارجة، مما لو استخدمه التلميذ أمام المعلم لنال قدرا من اللوم والتوبيخ.

المثال الأول: نقز

ومعناها وثب.

في كتاب الحيوان للجاحظ:

"والعصفور لا يعرف إلا أن يجمع رجليه ثم يثب، فيضعهما معا ويرفعهما معا. فليس عنده إلا النقزان. ولذلك سمي العصفور نقازا".

فلا تنكر على التلميذ أن يقول:

نقزت أو أن يأمره الأستاذ كف عن النقزان. ولا تكن نقازا.

أما "التنقاز" ففصيحه "التنقيز".

وقد بدأت بهذا المثال لما رأيته من تنقيز عيوش على مجال لا يحسن فيه شيئا وعلى لغة لا يجمعه بها رابط ولا ألفة ولا مودة.

مثال 2

اللوبياء والجلبانة والزلافة كلمات فصيحة ربما ينكر المعلم على التلميذ استخدامها في الفصل.

وهذه الفقرة من اللهجة التواتية الدارجة بالجزائر مثال جيد لفصاحة العامية:

"اشْبَعت دِلاَّع(1) حتى اتِّفْهَمْت(2)، وصرت ما نقدرش نُسْرُط (3) حتى حاجة، غير

جُغْمِة(4) الماء.

قالت لي امي :سير ياولدي حوس (5)على القَارِصْ (6) وسِنَّة ثوم(7)، حطهم في طاجين (8) على نار خفيفة".

قلت لها:"الزَّفْ (10) راه في راسي تقول اشْقيقة(11)، وهذا الدوا تاعك بَايِنْ سَامِط (12) مانقدرش نشربو".

قالت لي:"اشْـوِيَة (13) برك واتْوالِف (14) خير ما اتْروح اتْحَوَّسْ(15) في الزَّنْقَة (16) على زعبيط وابعيط أو نقاز الحيْط. ولا بلحمر ولا طبيب ما يفهم والو، يرقيك ولا يعطيك دواء تاع الكلوة (17) والا النغانغ(18)"..

وكل الكلمات المشار إليها بالأرقام فصيحة وهذه معانيها:

1 - الدلاع: ذكره الشهابي في معجم الألفاظ الزراعية

2 - مڤهوم: أقّهم الرجل عن الطعام اذا لم يشتهه "معجم الصحاح للجوهري

3 - يسرط: سرطت الشيئ اسرطه سرطا،اذا بلعته "معجم الصحاح للجوهري

4 - جغمة :غمج الماء والغمجة الجرعة "معجم الصحاح للجوهري

انظر لقرب اللفظ واتحاد المعنى وكثيرا ما تميل العامية باللفظ نحو الأسهل

5 - شاف:شفت الشيئ جلوته ، وتشوفت إلى الشيئ تطلعت اليه "معجم الصحاح للجوهري

6 - القارص : والقارِصُ: اللبن الذي يَحْذي اللسان. وفي المثل: عَدا القارِصُ فَحَزَرَ، أي جاوز إلى أن حَمِضَ معجم الصحاح للجوهري

7 - سنة ثوم :وسنة الثوم:فصة منه" معجم الصحاح للجوهري.

8 - طاجين:الطيجن والطاجين الطابق يقلى عليه"معجم الصحاح للجوهري.

9 - الكانون: الكانونة الموقد"معجم الصحاح للجوهري.

10- الزف: والريح تزف وهوهبوب ليس بشديد ولكنه في ذلك ماض" معجم الصحاح للجوهري

11 - الشقيقة:وجع يأخذ نصف الرأس والوجه" معجم الصحاح للجوهري.

12 - سامج: سمج الشيئ سماجة،والسمج اللبن الدسم الخبيث الطعم) معجم الصحاح للجوهري.

13 - شوية: والشوية بقية قوم هلكوا، والشواية:الشيئ الصغير من كبير،مابقي من الشاة الا شواية"معجم الصحاح للجوهري. 1397

14 - ألف=والف: والآلاف جمع والف، وفلان قد ألف هذا الموضع يألفه إلفا "معجم الصحاح للجوهري

15 - حوس: تركت فلانا يحوس بني فلان أي يتخللهم ويطلب فيهم "معجم الصحاح للجوهري

16- زنقة: السكة الضيقة"معجم الصحاح للجوهري.

17 - الكلوة :الكلية والكلوة :لغة"معجم الصحاح للجوهري.

18 - النغانغ: لحمات تكون في الحلق عند اللهاة"معجم الصحاح للجوهري.

المبالغة في تجنب الكلمات السوقية تضر تعليم اللغة

تستبدل الحسانية أحيانا حرفا من الكلمة العربية الأصلية بحرف آخر، كما في تحويل كلمة ضرط إلى "زرط".

وكلمة ضرط وما في معناها واسعة الحضور في طرائف القصص. وربما تفتقد الأقسام الدراسية كثيرا من المتعة والاستفادة حين يتجنب المقرر الدراسي والمعلم هذه الكلمات السوقية.

وبالقطع فهي كلمات لا يتجنبها المجتمع ولم تتجنبها كتب الأدب.

فأطفال العيون كانوا يسمون اللوبيا "الزراطة"، وذلك أن الوجبات كانت في معظمها تكون من لون واحد. ويوم اللوبيا يتغدى الجميع من لوبياء معها مرق قد يكون فيه لحم وقد لا يكون ومع كثير من الخبز مما يؤدي إلى حالة لا مفر منها.

وقد كان أبي رحمه الله يحب أن يقرأ مع جلسائه من الكتب. وقد قرروا مرة أن يقرؤوا من كتاب "المستطرف من كل فن مستظرف" وصادف أن تكلف محمد لمين قاري بالقراءة وقد وصلوا باب الطرائف. فكان محمد لمين يقرأ القصة حتى يصل إلى كلمة السر في طرائف الأعراب (ضرط) فكان يمتنع عن القراءة ويصاب بنوبة من الضحك، فيعرف الجميع سبب ضحكه فيضحكون. وكان محمد القاري يستحثه على مواصلة القراءة، ففيما يكتب بالفصحى لا يرى البيظان أي داع لممارسة الرقابة بدعوى الحياء طالما كان هناك مجال للاستفادة.

وقد يتحول الضراط إلى قصف بالسلاح الكيماوي، ربما أدى إلى القتل أو قرب منه. كما روى الجاحظ في كتاب الحيوان:

قال : وتعشى أبو كعب القاص بطفشيل كثير اللوبيا ، وأكثر منه ، وشرب نبيذ تمر ، وغلس إلى بعض المساجد ليقص على أهله ، إذ انفتل الإمام من الصلاة فصادف زحاما كثيرا ، ومسجدا مستورا بالبواري من البرد والريح والمطر ، وإذا محراب غائر في الحائط ، وإذا الإمام شيخ ضعيف ؛ فلما صلى استدبر المحراب وجلس في زاوية منه يسبح ، وقام أبو كعب فجعل ظهره إلى وجه الإمام ووجهه إلى وجوه القوم ، وطبق وجه المحراب بجسمه وفروته وعمامته وكسائه ، ولم يكن بين فقحته وبين أنف الإمام كبير شيء ، وقص وتحرك بطنه ، فأراد أن يتفرج بفسوة وخاف أن تصير ضراطا ، فقال في قصصه : قولوا جميعا : لا إله إلا الله! وارفعوا بها أصواتكم .

وفسا فسوة في المحراب فدارت فيه وجثمت على أنف الشيخ واحتملها ، ثم كده بطنه فاحتاج إلى أخرى فقال : قولوا : لا إله إلا الله! وارفعوا بها أصواتكم . فأرسل فسوة أخرى فلم تخطئ أنف الشيخ ، واختنقت في المحراب . فخمر الشيخ أنفه ، فصار لا يدري ما يصنع . إن هو تنفس قتلته الرائحة ، وإن هو لم يتنفس مات كربا .

فما زال يداري ذلك ، وأبو كعب يقص ، فلم يلبث أبو كعب أن احتاج إلى أخرى .

وكلما طال لبثه تولد في بطنه من النفخ على حسب ذلك . فقال : قولوا جميعا : لا إله إلا الله! وارفعوا بها أصواتكم . فقال الشيخ من المحراب - وأطلع رأسه وقال - : لا تقولوا! لا تقولوا قد قتلني! إنما يريد أن يفسو! ثم جذب إليه ثوب أبي كعب وقال : جئت إلى ها هنا لتفسو أو تقص؟ فقال : جئنا لنقص ، فإذا نزلت بلية فلا بد لنا ولكم من الصبر! فضحك الناس ، واختلط المجلس .

وقد ذكر الجاحظ (الفسو) وهو أصل كلمة (فسى) المستخدمة في الدلالة على الضراط في الدارجة. ومعناه الضراط بدون صوت. وهو المناسب إذا كنت في جماعة من الناس.

أما تفصيل مستويات الضراط وأنواعه فقد أتت به قصة رائعة أخرى على نحو يشفي الغليل:

حكى المدائني قال: خطب رجل من بني كلاب امرأة، فقالت أمها: دعني أسأل عنك، فانصرف الرجل، فسأل عن أكرم الحي، فدل على شيخ منهم، كان يحسن المحض في الأمر، فأتاه وسأله أن يحسن عليه الثناء وانتسب له فعرفه، ثم إن العجوز غدت عليه، فسألته عن الرجل، فقال: أنا أعرف الناس به، قالت له: كيف لسانه؟ فقال: مدره قومه وخطيبهم، قالت: فكيف شجاعته؟ قال: منيع الجار، حامي الذمار، قالت: فكيف سماحته؟ قال: ثمال قومه وربيعهم، وأقبل الفتى، فقال الشيخ: ما أحسن - والله - ما سلم، ما دار ولا بار، ثم جلس فقال: ما أحسن - والله - ما جلس ما دنا ولا نأى، وذهب الفتى ليتحوط، فأخرج ريحاً فقال: ما أحسن - والله - ما ضرط. ما أغنها، وما أطنها، ولا بربرها، ولا فرفرها، ونهض الفتى خجلاً، فقال: ما أحسن - والله - ما نهض، ما أبطأ ولا أسرع، فقالت المرأة: حسبك بهذا، وجه إليك من يرده، فو الله، لو سلح في ثيابه لزوجناه.

الطقطقة

في الحسانية كلمتان لا تتضمنان الحروف المعروفة المكتوبة، وإنما تنتجان عن طريق حركات خفيفة بالشفتين. إحدى الكلمتين تعبر عن الموافقة والأخرى عن النفي.

وطالما تعرض التلاميذ في مدارس العيون وبوجدور والسمارة والداخلة للعقاب بسبب استخدامهما أمام المعلم باعتبارهما لا تمتان إلى اللغة العربية بصلة.

وقد وجدت بالصدفة أن الكلمة المعبرة عن النفي عربية فصيحة وهي مذكورة فيمادة

"مضض" في لسان العرب، علما أن الكلمة يشار إليها في الحسانية بـ "مز".

"المض أن يقول الإنسان بطرف لسانه شبه لا، وهو "هيج" بالفارسية، وأنشد:

سألتها الوصل فقالت مـض

وحركت لي رأسها بالنغض

النغض التحريك.

قال الجوهري: مض، بكسر الميم والضاد، كلمة تستعمل بمعنى لا وهي مع ذلك كلمة مطمعة في الإجابة."

وتسمى الأصوات المستخدمة في الكلمتين في اللسانيات الحديثة بالطقطقة. والطقطقة نادرة في العربية وفي اللغات الأوربية. وهي كثيرة في لغات جنوب إفريقيا الأصلية حتى يكاد كلامهم كله يكون طقطقة.

وأقرب ما وجدت لنطق كلمة مض في جدول الأصوات الدولي هوǀ ونطقه موجود على صفحته على ويكيبيديا:

https://en.wikipedia.org/wiki/Tenuis_dental_click

والرمز الأقرب لنطق الكلمة المفيدة لمعنى الموافقة هوt͡ɬʼ ونطقه موجود على صفحته في ويكيبيديا:

https://en.wikipedia.org/wiki/Alveolar_lateral_ejective_affricate

وتستخدم في الحسانية كلمات أخرى مبنية على أصوات الطقطقة خاصة في دعوة الحيوان.

الجدول الكامل لأصوات الطقطقة متاح هنا:

https://en.wikipedia.org/wiki/Click_consonant

وهذا مثال على كثرة الطقطقة في لغة الخوسا بجنوب إفريقيا، وأصواتها طريفة جدا:

https://www.youtube.com/watch?v=KZlp-croVYw

بين دبي والصين

سافرت شهر يونيو سنة 2005 إلى دبي للمرة الثانية، للقيام بمشتريات من المعدات المعلوماتية بغرض بيعها في المغرب. كنا بدأنا بيع أجهزة الكمبيوتر وملحقاتها قبل ذلك بسنتين وكنا نشتريها من الدار البيضاء.

لغة صناعة المعلوميات في المغرب كما هي لغة المعلوميات نفسها هي الفرنسية حصريا. وهو أمر أدركته جيدا منذ 1995 حين اشتريت جهاز كمبيوتر لأول مرة. البائعة في الشركة التي كانت تمثل آسير التايوانية، فوجئت بتحيتي لها بالعربية. ربما كان كل داخل لمقر الشركة يترك ما معه من الدارجة عند الباب. تحدثت الشابة المغربية بفرنسية صقيلة. ولم تتردد في إشعال سيجارة أثناء تقديمها لنماذج الأجهزة المتوفرة. هكذا كانت صورة الشركة الناجحة في المغرب حينها: شابة تلبس ثيابا عصرية، متزينة ومتعطرة وتتحدث الفرنسية ولا بأس بسيجارة أيضا.

لم أشتر من عندهم وإنما اقتنيت الجهاز من دار نشر كان صاحبها يشتري أجهزة من الشركة المذكورة ويعيد بيعها بعد إضافة ربحية محدودة. دفعت 17 ألف درهم مقابل جهاز من طراز 486، الجيل السابق لبنتيوم. وكان يشتغل ببرنامج دوس النصي، وذلك قبل أن تسيطر واجهة ويندوز الرسومية على برنامج التشغيل في أجهزة الكمبيوتر الشخصي.

أدركت في دبي أن رصيدي من الفرنسية لا أهمية له. وأن هذه أول مرة سأستخدم فيها ما تعلمته من الإنجليزية في سياق عملي. سوق المعلوميات في دبي يتحدث الإنجليزية بشكل يكاد يكون حصريا.

كنت أستيقظ صباحا واستخدم هاتف الغرفة في الفندق ودليل الهاتف، وبما أن الاتصالات المحلية مجانية فقد كنت أجري كثيرا من الاتصالات تمهيدا لتحديد الشركات والمحلات التي سأزورها. وكانت الإنجليزية لغة التواصل الرئيسية.

على الطرف الآخر ربما ترد عليك موظفة فلبينية أو هندية أو يجيبك بائع مصري أو إيراني. في جميع الحالات التحية هي "هيلو" والحديث إنجليزي من حيث المبدأ. وحين يكون محدثي عربيا، ربما يحول هو أو أحول أنا الخطاب إلى لغتنا الأم. لكنه كان الاستثناء لا القاعدة.

وحين نبدأ تبادل المراسلات الإلكترونية فهي تكون بالانجليزية طبعا. هذه دبي. وهي مدينة عالمية. والأمر يتعلق بتجارة المعدات المعلوماتية. إنها جميع الشروط لتكون الإنجليزية سيدة الموقف.

بل إن إجادتها وتكلف نطقها سليمة وأقرب ما تكون إلى ما نسميه الإنجليزية البريطانية أو الإنجليزية الأميركية يُشعِرُ المتحدث بنوع من التفوق على محاوريه. ويعطيه "وضعا اجتماعيا" أعلى. أو هكذا يخيل إليه.

بعد عدد من الاتصالات التي كانت تأخذ أحيانا عدة ساعات باعتبار كثرة الشركات المشتغلة في توزيع معدات الكمبيوتر حينها في دبي، وكانت هذه الصناعة في أوجها، كنت أشعر بالحاجة للخروج ورؤية المحلات والسلع بشكل مباشر. وغالبا ما أكون رتبت عدة مواعيد.

وقت الضحى في دبي شهر يونيو حار جدا. وكذلك سائر اليوم. لذلك تلفحك حرارة الشمس بمجرد مغادرة الفندق. كنت أقيم في حي "الديرة". ومنه أتجه إلى خور دبي وهو قناة بحرية مرتبطة ببحر الخليج. ويُمَكنني عبوره من الوصول إلى وجهتي، شارع خالد بن الوليد، في وقت قصير بالمقارنة مع استخدام سيارة أجرة. كما أنه كان أقل تكلفة بكثير. وكان يتيح لي شيئا من المشي، والتفرج على شوارع الديرة الصاخبة والممتلئة طوال الوقت.

أقمت في الديرة لكثرة الفنادق قليلة التكلفة بها. وهي فنادق بسيطة تمتلئ من تجار "الشنطة". و هم تجار يسافرون ويشترون كميات قليلة من السلع يحملونها معهم أو يشحنونها بالجو، ثم يعيدون الكرة بعد بيعها. و ربما يسافر تاجر الشنطة مرات عديدة في السنة إلى دبي أو إسطمبول أو غيرها بحسب نوعية تجارته.

يقيم في فنادق الديرة أشخاص قدموا للتسوق من مصر والمغرب الكبير وإفريقيا ودول الاتحاد السوفياتي السابق. تجدهم يحضرون كراتين السلع وربما يفرغون بعض المنتجات من تغليفها ليخف وزنها. أو يرتبون سلعا بطريقة تجعل عدد الطرود أقل. أو يجهزون السلع لإرسالها مع واحدة من شركات النقل الكثيرة المنتشرة في شوارع الديرة.

ولكثرة عمل تجهيز السلع تجد عاملا أو أكثر مجهزا بقاطع ورق ولفافات من الأشرطة

اللاصقة أمام كل واحد من هذه الفنادق، يساعد التجار في تجهيز سلعهم بمقابل متفق عليه. كما تتوفر الفنادق على مكان للتخزين المؤقت للسلع ريثما يكمل الزبناء تجهيز مشترياتهم.

هنا تختفي الإنجليزية النظامية ويحل محلها خليط من العربية والإنجليزية والهندية ولغة الإشارة. العمال البسطاء في دبي لا يكلفون نفسهم عناء تعلم "لغة الأعمال" و"لغة التكنولوجيا" وإنما يراكمون كلمات وتعابير يأخذونها بالممارسة اليومية فتكون خليطا من اللغات يسمح بالتفاهم. وهذا هو المهم.

عند شاطئ خور دبي من جهة الديرة أصعد إلى واحد من القوارب الصغيرة الكثيرة المتجهة إلى بر دبي. وهي قوارب تنقل الركاب بنصف درهم للراكب في ذلك الوقت. وهي سريعة ورحلتها ممتعة. فهي رحلة بحرية على أية حال.

يمخر القارب عباب مياه الخور، فينتعش الركاب بنسمة ريح تلطف الحرارة. وحركة الماء على جانبي القارب جميلة لمن ينظر إليها ويتأمل فيها. وغالبا ما يكون الركاب مشغولين بما يتبعهم من مهام عن هذا التأمل. فهم بين تاجر يريد الإسراع بإنجاز مشترياته، أو بائع يكافح في سوق شديد التنافسية، أو باحث عن عمل يطرق الأبواب في مدينة مفتوحة على كفاءات العالم، أو عامل بسيط عليه أن يسرع بإنجاز مهمة كلف بها حتى لا يغضب منه مشغله ويطرده. أو أي واحد من هؤلاء يفكر في تمديد تأشيرته أو الحصول على إقامة أو تدبر تذكرة سفر.

ليس مشكلا أن توجه الشكر بالعربية أو الإنجليزية أو غيرها. ففي عالم العمال البسطاء ومحلات التجزئة والمقاهي في دبي يتم تحقيق التواصل بدون تكلف وبطريقة تشكل فيها لغة الإشارة وملامح الوجه ونبرة الصوت جزءا يكاد يكون أكثر قوة وأهمية من النص نفسه.

أنزل على شاطئ بر دبي وأتجه مشيا إلى شارع خالد بن الوليد وهو شارع محلات المعلوميات حيث مقرات شركات توزيع أجهزة الكمبيوتر وكل ما يرتبط بها. وبر دبي حي أكثر رقيا من الديرة. ويظهر على نمط بنائه وطراز عماراته أنه أحدث فشوارعه أوسع، وبناياته أكبر.

تعرض الشركات منتجات متشابهة. وأغلبها مستورد من الصين وتايوان. وتحير المنافسة الزبون وتصعب عليه اتخاذ قرار الشراء، خاصة أن البائعين لا يعتمدون قوائم أسعار محددة وإنما

يبيعون بحسب ما يتاح لهم من هامش ربحية. وبالنظر إلى الضغط الواقع عليهم من مشغليهم فكثير من البائعين يبذلون مجهودا كبيرا لكسب ود الزبون والوصول لإنجاز الصفقة معه.

في واحدة من الشركات التي تعاملت معها كانت موظفة الاستقبال فلبينية، والبائع الذي تولى عرض السلع علي سوريا ومدير الشركة هنديا. لغة التواصل والوثائق بين الباعة والإداريين كلها إنجليزية. إلا أن يكون شخصان من نفس الجنسية فتجدهما يتحولان في الغالب إلى لغتهما الأم. كما يلاحظ عند حديث مدير الشركة إلى بعض الموظفين الهنود معه. وتتحول لغة التواصل إلى الخليط الذي وصفته حين يتحدثون مع العمال المكلفين بتجهيز السلع أو بالنقل والمناولة.

وقد ارتحت بالطبع للحديث مع البائع السوري بالعربية. وللهجة الشامية جمالها الخاص الذي يغري بالاستماع إليها. كان شابا متحمسا لعمله يبني عليه طموحات كبيرة شأن معظم الوافدين على دبي في وقت كانت المدينة فيه تعرف طفرة اقتصادية هائلة.

تعاملت مع محل آخر يملكه إيراني ويشتغل به باعة من فلسطين ونيجيريا و ميانمار. "سان سان"، البورمي، أكثرهم عناية بالتسويق فكان يتابع معي بالهاتف والبريد الإلكتروني، ويراجع الأسعار وشروط البيع حتى نصل لإتمام البيع.

ولكن كان ظاهرا أن البائع النيجيري أكثر نشاطا. وكان يتحدث الانجليزية بلكنة يصعب فهمها بدون انتباه وتركيز معها. ولم يكن ذلك يحرجه مطلقا. كان يتحدث بصوت مرتفع. ويتصرف بطريقة قد تجعلك تحسبها عدوانية. ولكنها كانت أسلوبه في التواصل والعمل. وطوال الوقت كان يحضر طرود السلع لزبناءه من نيجيريا وغيرها من بلدان وسط وغرب إفريقيا ممن كانوا ينقلون مشترياتهم بالطائرة.

هكذا صححت فكرة أن المعلوميات فرنسية وعوضتها في دبي بإدراك أن الانجليزية سيدة لغة الكمبيوتر والتجارة. وأن الفكرة التي يسوقون لنا في المغرب منذ الابتدائي ليس لها أساس.

لكني لم أكن راضيا على شراء سلع صينية من دبي. فقررت السفر إلى هونغ كونغ لاستكشاف الفرص المتاحة هناك. اشتريت تذكرة ذهاب وعودة مع الخطوط الإماراتية. فكانت فرصة لتصحيح مكان شراء السلع، وأيضا لتصحيح كثير من أفكاري حول اللغات الحية.

طيران الإمارات

تأكدت أن زيارة هونغ كونغ لا تحتاج تأشيرة مسبقة. فالمسافر من أغلب بلدان العالم يمكن أن يحصل على "تأشيرة عند الوصول" في المطار وبدون تكاليف. اشتريت تذكرة ذهاب وإياب من طيران الإمارات. وهو طيران سأرتبط به لسنوات. ولكثرة الأسفار معه سأحصل لاحقا على بطاقة المسافر الذهبية وعلى ترقية التذكرة إلى درجة رجال الأعمال في نسبة مهمة من الرحلات.

طيران الإمارات ومنافسوه من الخطوط الخليجية نماذج لما يمكن إنجازه بالمال وبإرادة قوية لتحقيق النجاح. لا أحد ظن أن هذه الشركة ستمضي بعيدا يوم أسست وخصوصا بالنظر لطريقة بدايتها المتواضعة.

في منتصف الثمانينات خفضت طيران الخليج خدماتها إلى دبي. فقررت إمارة دبي تأسيس خطوط خاصة بها. وتم ذلك بالتعاون مع الخطوط الباكستانية التي وفرت للشركة الوليدة طائرتين بالإيجار وتولت تدريب الطاقم. رأس المال كله أتى من حكومة دبي وكان عشرة ملايين دولار.

وللمقارنة فقط، فقد كان أسطول الخطوط الملكية المغربية عند تأسيسها، ثلاثة عقود قبل أختها الصغرى الإماراتية، سبع عشرة طائرة.

في يونيو2005، وقت رحلتي، كانت عشرون سنة مرت على تأسيس الشركة. وكانت قطعت شوطا هائلا من التطور. كان واضحا أنها شركة لا تضع لنفسها نسب نمو عادية أو أفق تحسين محدودا فقد كانت عازمة على منافسة الكبار.

اعتمدت الشركة مبدأ التحسين المستمر ووضع الزبون في مركز الاهتمام والتأكد من أن تمر تجربته خلال السفر وقبله وبعده مع خدماتها في أحسن الظروف. ومن أجل ذلك تم الاعتماد على طاقم من كل أنحاء العالم. مع عملية انتقاء صارمة متبوعة بتدريب جيد ومتابعة اشتكى موظفو الشركة أحيانا من أنها توقع عليهم ضغطا كبيرا.

تعتمد الشركة العربية والإنجليزية لغتين أساسيتين. كل تعليمات الأمان والمعلومات المقدمة للمسافر قبل وأثناء الرحلة تتم بالعربية أولا ثم الإنجليزية ثم لغة البلد الوجهة. ولكن بصمة الدور البريطاني القوي في الإدارة واضحة جدا. فكما هي حاضرة في جودة الخدمات والعناية بالزبون

فهي واضحة في الوضع المتميز للإنجليزية حيث هي لغة الحديث الافتراضية. وواضحة أكثر في قوائم الطعام التي توفر عددا كبيرا من أنواع الخمور خاصة في درجة رجال الأعمال. ومن الطريف أن قائمة الخمور ليست مترجمة للعربية. وأن قائمة الوجبات تنص على أن الطعام المقدم على الرحلة "حلال".

وتميز الوضع الاجتماعي للحديث بلغة داخل مجتمع مقارنة بلغة أخرى شيء ملاحظ في مجتمعات لغوية كثيرة. ومثاله واضح في دول شمال إفريقيا الفرنكفونية. فقد كان تحدث الشخص بالفرنسية مظنة للحصول على خدمة أفضل عند التعامل مع الإدارة والشركات ومحترفي المهن الحرة. أن تبادر بالحديث بالفرنسية وأنت تخاطب شخصا بالهاتف أو مباشرة يعني بالضرورة أنك متعلم ومن الطبقة المتوسطة على الأقل، وربما يخشى أن ترفع صوتك إن تعرضت لمعاملة غير ملائمة.

وتجد الكثيرين يحرصون على اختيار الفرنسية عند الاتصال بخدمات شركات الاتصال والنقل مثلا. ويشيع بين الناس أن اختيار القناة العربية يعرضك لتلقي خدمة مطبوعة بالجفاء والعجرفة. قد يكون ذلك وهما وقد يكون حقيقة. ولكنه مؤثر على اختيارات الناس اللغوية في كل حال.

وقد أخبرني مالطيون أن الحديث بالانجليزية ظل مرتبطا بالرقي الاجتماعي حتى السبعينات. حينها بدأ المجتمع في معاقبة من يتحدث الانجليزية في سياق لا يقتضيها بالنظر إليه على أنه شخص مباه ومتكبر. واليوم يرى زائر جزيرة مالطة أن المالطيين يتحدثون مع بعضهم لغتهم الأم، المتفرعة عن العربية، في جميع السياقات. حتى إن الطلبة الأجانب يشتكون من أن زملاءهم المالطيين في الفصل كثيرا ما يوجهون الأسئلة للأساتذة باللغة المالطية بالرغم من أن الإنجليزية هي لغة تدريس العلوم والطب والهندسة في الجامعة.

في الطائرة كنت أتأمل أحيانا أسماء الأطعمة الغريبة في قوائم الطعام، بالعربية والإنجليزية. وأتساءل عن سر اقتصار قوائم الطعام في المطاعم المغربية على الفرنسية. وهو تقليد يظن كثير من أرباب المطاعم في البلدان المغاربية أن كسره يعني أن الطعام المقدم يفتقد الجودة.

وهو موقف يجب أن يكون مثيرا للسخرية إذا علمنا أن جملة (كافي صون سيكر) مثلا،

تحتوي كلمتين دخلتا اللغات الأوربية من العربية وهما القهوة والسكر.

ولبيان "التعدد اللغوي" للخطوط الإماراتية، يذكر واحد من الطاقم في بداية الرحلة اللغات المتوفرة: "طاقمنا على هذه الرحلة يتحدث اللغات العربية والإنجليزية و..." معددا اللغات التي يتحدثها المضيفون والمضيفات. وهي ليست بالقليلة على رحلات تضم غالبا أكثر من مائتي راكب، وطاقما كافيا للسهر على خدمته.

كان العنصر الصيني غالبا على المسافرين. وهو عنصر ستقل نسبته من المسافرين بين دبي وهونغ كونغ بالتدريج خلال السنوات الموالية مع تحول الصين إلى وجهة شعبية للتجارة والسياحة والدراسة وحتى العلاج.

لاحظت أن الركاب أخذوا أماكنهم بسرعة. وأن أمتعتهم اليدوية ليست كثيرة. الدربة وألفة السفر وطاعة التعليمات لها دورها. وهناك أيضا حقيقة أنهم لن يحملوا كثيرا من المشتريات إلى هونغ كونغ، وهي إقليم تجارة حرة لا تفرض فيه على الواردات رسوم جمركية وليست فيه ضريبة على القيمة المضافة مما يجعله جنة تسوق تتفوق بمراحل على دبي نفسها.

كانت فرصة لتحقيق الألفة مع أصوات اللغة الصينية بصيغتيها الماندرين، وهي لغة بكين واللغة الرسمية في الصين، والكانتونية وهي لغة التواصل الشفوي في هونغ كونغ. وبينهما فرق كبير في الأصوات بسبب خاصية النبرات، التي لا نعرفها في لغاتنا.

والنبرات خاصية في عدد كبير من اللغات في شرق آسيا. وهي تعني أن لكل مقطع صوتي نبرة خاصة به. ولكل لغة نبرية عدد من النبرات. فالصينية بها خمس نبرات. بينما الكانتونية لها ما بين ست وثمان حسب المنطقة.

وفي النبرات قصير وطويل ومرتفع ومنخفض وما يجمع بينهما في تفصيل تحتاج دراسته وفهمه شرحا خاصا. وفيها أيضا النبرة المحايدة وهيأقرب شيء لطريقتنا في النطق.

والنبرة شيء مدهش حد الإزعاج لمن لا عهد له بها. حتى أننا لا نكاد نسمع من الصينية إلا نبراتها. وغيابها في لغاتنا يجعل الصيني يقول إنه لا يميز أصوات ما ننطق به فالحرف خافت لا طعم له بالنسبة لأذن الصيني ما لم توضع عليه حركة النبرة لمستها.

ويعاني دارس الصينية من غير متحدثي اللغات النبرية صعوبة إضافية لا يجدها الناطقون بلغات مثل اليابانية والفيتنامية مثلا. ومكمن الصعوبة في دراسة أي لغة هو درجة اختلافها عن أسرة اللغة الأم للمتعلم. ومن هنا ربما يحسن الحديث عن درجة اختلاف اللغة الأجنبية عن لغتك الأم وليس بالضرورة عن درجة صعوبة اللغة. ويتجلى هذا في درجة سهولة تعلم الإسبانية للمتحدث بالبرتغالية وسهولة العربية على الناطق بالعبرية وسهولة الصينية على المتعلم الياباني. مع التأكيد على أن استخدام كلمة "سهولة" هنا نسبي تقريبي.

تمر مدة الرحلة وهي ثماني ساعات سريعة، خاصة لأول مرة، بفضل برنامج الخدمات ووسائل التسلية المتوفرة. سيظل الطاقم مشغولا بتقديم المشروبات ووجبتي الطعام والقهوة والشاي والطلبات الخاصة للركاب كل الرحلة ما عدى وقت الإقلاع ووقت الهبوط. ويتوفر كل مقعد على شاشة على ظهر المقعد أمامه أو تكون جانبية تدخل في ذراع الكرسي إن كان في الصف الأول. ويتوفر نظام الترفيه على عدد كبير من الأفلام والبرامج التلفزيونية والألعاب والقنوات الصوتية الكفيلة بالاستجابة لكل الأذواق.

إلا أن الوقت على الطائرة يتجمد حين تمر بمطبات هوائية، ويطلب القائد من الركاب شد الأحزمة والكف عن الحركة في الممرات واستخدام المراحيض. وربما يتم إيقاف خدمات الطعام عامة أو تقديم المشروبات الساخنة على الخصوص. حينها وبحسب درجة اضطراب الطائرة يسود الصمت المطبق. وترى الركاب يتفحصون وجوه الطاقم بحثا عن طمأنينة وهم يتساءلون عن درجة خطورة الوضع. فإذا طالت مدة اضطراب الطائرة ربما كان الكثيرون يعلنون التوبة من كل ذنوبهم. أو يتندمون على ركوبهم هذه الرحلة أو حتى على استخدام الطائرة من أصله.

وبرغم أن الطيران من أكثر وسائل السفر أمانا فإنه أكثرها إثارة لرعب مستخدميه. فالطائرة تتحرك في ثلاثة أبعاد. وحين تصادف مطبات فالقائد يغير الارتفاع هروبا منها مما يزيد شعور الاضطراب. والمطبات لا تثير قلق الطاقم لألفتهم بها وتعودهم عليها وعلمهم أن الخطر إنما يأتي من الأعطال التقنية المفاجئة. وهي ربما مفيدة لهم أحيانا ليخفف الركاب عنهم الطلبات والأسئلة.

ومن الناس من يخاف من السفر بالطائرة خوفا شديدا. وقد امتنع نجيب محفوظ، الكاتب

المصري عن السفر بالطائرة مطلقا. حتى إنه بعث ابنتيه للنيابة عنه في استلام جائزة نوبل للآداب بسبب عدم قبوله السفر بالطائرة. وهو لم يسافر في حياته خارج مصر إلا في رحلة إلى اليونان بالسفينة.

تقطع الرحلة من دبي إلى هونغ كونغ بحر عمان والقارة الهندية وبحر الصين قبل أن تحط في مطار هونغ كونغ الذي تقع مدرجاته على الشاطئ. لذلك لا تكاد ترى اليابسة إلا وقد حطت الطائرة. إنه عالم مختلف بطقسه ودينه وعاداته وملامح أهله وخصوصا بلغاته.

مطار هونغ كونغ - حي (ياماتي)

مطار هونغ كونغ يمثل الإقليم خير تمثيل. فهو فخم وبسيط في الوقت نفسه. تجهيزاته وخدماته فخمة. والحركة فيه والقيام بالإجراءات صممت لتكون في أعلى درجة ممكنة من الفعالية والبساطة. نظام التشوير الطرقي جيد. وهو يقوم على اللغتين الصينية والإنجليزية، اللغتين الرسميتين للإقليم.

من المطار يبدأ حضور الحرف الصيني. هنا لا يحتكر الحرف اللاتيني تمثيل التقنية والاقتصاد والجودة. بل إن الحرف اللاتيني لا يكاد يوجد إلا وفوقه أو إلى جانبه الحرف الصيني.

عند شرطة الحدود تبدو صفوف القادمين بلا نهاية. ولكن بسبب تنظيمها وسرعة ختم الجوازات تسير العملية بسلاسة. على المسافر تعبئة مطبوع مرفق بنسخة كربونية. يتضمن المطبوع معلومات المسافر وعنوان إقامته المزمع في هونغ كونغ. يأخذ شرطي الحدود أصل النموذج ويبقي النسخة الكربونية في جواز المسافر لتسحب عند مغادرته الجزيرة.

تأشيرة الوصول بالنسبة لجواز السفر المغربي تسمح بالبقاء ثلاثين يوما في هونغ كونغ. وبخصوص لجنسيات عربية أخرى تصل المدة إلى 90 يوما أو تنخفض إلى 14.

عايشت تحسن خدمات ختم الجوازات في هونغ كونغ خلال السنوات الموالية بشكل مطرد. فقد تم إلغاء وضع الختم على الجواز وتم الاكتفاء بمراقبته وتسجيله على النظام المعلوماتي. وهو أمر وفر على كثيري السفر صفحات ثمينة في جوازاتهم. وتم اعتماد نظام البوابات الإلكترونية للمقيمين في هونغ كونغ. ثم لكل من زار الإقليم ثلاث مرات خلال نفس السنة.

وهو نظام استفدت منه عدة سنوات. ويتم تسجيل جواز السفر عند مكتب خاص بذلك وأخذ بصمة المسافر ووضع بطاقة رموز أعمدة على ظهر الجواز. بعدها يدخل المسافر الإقليم بواسطة رمز الأعمدة والبصمة في إجراء لا يأخذ إلا بضع ثوان.

بمجرد الخروج من المطار صدمتني نوعية الهواء شديد الرطوبة والمطبوع برائحة ثقيلة يأخذ المرء وقتا ليألفها. هي رطوبة أشد كثيرا من مستوى رطوبة الهواء في دبي. ومع الحرارة والمطر والتلوث تصبح مزعجة.

نزلت بفندق في (ياماتي) على شارع (طريق ناثان) وهو أحد أو سع شوارع هونغ كونغ وأكثرها ازدهارا وحركة. ويقال بأن حاكم الإقليم البريطاني ناثان تعرض للوم لإنشائه شارعا بهذا الاتساع باعتباره يفوق الحاجة حينها. واليوم يحمد الهونكونغيون له قراره ذاك باعتباره كان يستشرف إقبال الجزيرة على نمو مذهل.

أثارت سرعة موظفة الاستقبال دهشتي. مددت لها جواز السفر فسجلت البيانات بسرعة وأعادته لي قبل أن أحضر النقود لدفع تسبيق على عادة الفنادق هناك حيث يتم تغطية تكاليف الإقامة مسبقا نقدا أو ببطاقة ائتمان. وبمجرد أن أعطيتها النقود كانت تمد لي بطاقة فتح الغرفة وتتلو علي شروط الإقامة وتوضيحات حول الخدمات المقدمة. وهي عادة غربية أيضا. حيث يبين للزبون بشكل واضح ما يسمح به وما لا يسمح به. كانت تتحدث الإنجليزية بلكنة صينية وبسرعة كأنها شريط مسجل. فاتني كثير مما قالت ولكني مضيت إلى غرفتي.

وجدت في درج مكتب بالغرفة نسختين من الإنجيل، واحدة بالإنجليزية وواحدة بالصينية. وعادة وضع الإنجيل في غرف الفنادق مألوفة في عدد من دول الغرب. وإن كان النصارى في هونغ كونغ لا يشكلون أغلبية. لكن ربما يعود الأمر لديانة مالك الفندق.

نافذة الغرفة تطل على مدرسة مسيحية. والمدارس الدينية المسيحية منتشرة في الجزيرة. كما هي منتشرة في بريطانيا، مستعمرتها السابقة.

لا تحتاج في هونغ كونغ لسؤال أحد عن اسم شارع أو زقاق. فلوحات التسمية منتشرة بحيث تسهل لك الحركة إن توفرت على خريطة. وعموما يضيق سكان هونغ كونغ بسؤال الزوار

عن المعلومات فهم على عجلة من أمرهم دائما. وقد وسمت طبيعتهم بفظاظة سكان المدن المزدهرة التي يقبل عليها السياح بكثرة.

حضرت لهونغ كونغ بدون برنامج محدد. فقد أردت استكشاف فرص إنجاز مشتريات منها ومن الصين. والقيام في الوقت نفسه بجولات سياحية. كان كل شيء يثير لدي تساؤلات فأرجع لغووغل أبحث عن إجابات. وكنت بالتالي أقضي ساعات على الإنترنت التي يوفرها الفندق بمقابل.

هونغ كونغ – حي مون كوك

كنت أنزل من الغرفة إلى الشوارع المحيطة بالفندق وأتجول مندهشا من كل شيء. الزيارة الأولى للعالم الصيني تعني أن ترى كل شيء مختلفا. العنصر الصيني غالب على الناس في الشوارع. والرطانة الصينية بنبراتها المرتفعة تطرق سمعا لم يألفها. العمارات شاهقة والكثافة السكانية شديدة. فهونغ كونغ كانت نقطة جذب للصينيين بسبب ازدهارها الاقتصادي ومستوى الحرية والحكومة الجيدة تحت البريطانيين. مما جعل كثافة حي (مونكوك) الملاصق لمكان إقامتي واحدة من أعلى الكثافات السكانية في العالم.

يحب سكان الجزيرة التجوال والخروج للنزهة وتناول الطعام خارج البيت خاصة نهاية الأسبوع. يساعدهم في ذلك دخلهم المرتفع وجودة الخدمات المتوفرة بفضل حرية اقتصادية وحكومة جيدة.

ومساء السبت يقال بأن كل السكان تقريبا يخرجون، وهم ستة ملايين ونصف مليون. وخدمات النقل العام جيدة للغاية. فالمترو يكاد يغطي كل مكان بخطوطه الكثيرة ومحطاته التي تتوفر على مخارج متعددة. بحيث تهبط إلى الأنفاق عند نقطة الانطلاق وتخرج عند نقطة الوصول لو استخدمت المخرج الصحيح.

تتوفر الخرائط المجانية في المطار ومحطات المترو والفنادق. ولذلك ترى السياح يتفحصونها في الشارع بحثا عن الأماكن التي يقصدونها. قبل أن يتحول الناس إلى الخرائط الالكترونية التي سهلت الحركة في المدن بشكل لا سابق له.

كان من المدهش أن أرى درجة الزحام في الأسواق الشعبية في مونكوك. ومع ذلك يتحرك الناس بسرعة وانتباه شديد لأن لا يتصادموا. المحلات تبيع كل أنواع المنتجات الإلكترونية والهدايا والمصوغات والملابس حيث يتسوق المحليون ومئات الآلاف من الزوار من البر الصيني والسياح من كل العالم.

والمطاعم كثيرة جدا، العصري منها والتقليدي، المحلي والدولي. إضافة إلى انتشار سلسلتي ماكدونالد وكينتاكي بشكل ملفت. هناك أيضا أكشاك الطعام الصغيرة والعربات التي تقدم أطعمة

ذات روائح لا تطاق تضاف إلى الرطوبة والحرارة لتجعل نوعية الهواء مرعجة لي. فأهرب سريعا من أزقة (مونكوك) الضيقة الخاصة بالمشاة إلى الشوارع الواسعة القريبة.

كنت أظن تبعية هونغ كونغ لبريطانيا حتى بداية 1997 ستعني حضورا قويا وواضحا للإنجليزية مع حضور خافت للصينية على النحو الملاحظ في البلدان المغاربية. إلا أن الأمر لم يكن كذلك. فعند بائع الصحف تجد معظم المطبوعات بالصينية. ولا تكاد تسمع في الشارع إلا اللغة الكانتونية المحلية. ولكن بسبب الوضع الرسمي للإنجليزية في الإقليم فاللافتات والاشهارات وقوائم الطعام والمعلومات على المنتجات غالبا ما تحمل صيغة إنجليزية إلى جانب الصينية.

يتكلم أهل هونغ كونغ والأقاليم المجاورة لهم من البر الصيني الكانتونية، وهي شكل من أشكال اللغة الصينية. وهل هي لغة أو لهجة، قولان. فهي لغة الحديث والتواصل الشفهي ووسائل الإعلام وصناعة الترفيه. ولكن الكتابة والنشر في الصحافة والمطبوعات عموما تتم باللغة الصينية المعيارية نفسها المستخدمة في البر الصيني.

معظم أهل هونغ كونغ يفهمون لغة الماندرين وهي لغة البر الصيني أو بتسمية أخرى لغة بكين. ولكن متحدثي الصينية الماندرين لا يمكن أن يفهموا الحديث بالكانتونية إلا إذا تعلموها. ففوارق النطق واضحة وقوية لدرجة ينتبه إليها الأجنبي بسهولة.

والفرق الأساسي في النبرات حيث يزيد عدد نبرات الكانتونية على نبرات الصينية. حتى تظن الهونغ كونغي يغني وهو يتحدث. وهم كثيرا ما يتكلمون بصوت مرتفع. فإذا كنت وسط مجموعة منهم في وسيلة نقل أو في مكان انتظار، قد يكون من المسلي أن تتابع أصوات الحديث التي تشبه أغاني متداخلة.

كانت الإنجليزية هي اللغة الرسمية الوحيدة من 1883 حتى 1974. ونتيجة مظاهرات وعرائض شعبية تم إضافة الصينية لغة رسمية بدءا من ذلك الحين. وينص القانون الأساسي للإقليم، المتمتع بالحكم الذاتي منذ 1997، على اللغتين الصينية والإنجليزية لغتين رسميتين. ويوجب صدور القوانين والمذكرات الرسمية باللغتين. ويترك اختيار لغة المداولة في المحاكم بين اللغتين لهيئة المحكمة.

ولدعم الثنائية اللغوية أنشئ "صندوق اللغة" سنة 1994 وهدفه دعم مبادرات تحسين معرفة السكان باللغتين الصينية والإنجليزية خاصة من خلال المدارس. وينجز الصندوق دراسات حول استخدام اللغة في البيوت والعمل ويقدم توصيات لتأكيد الثنائية اللغوية وتوسيع اكتساب لغة ثالثة. ومن بين مبادرات الصندوق دعم استخدام الصينية المعيارية (الماندرين) في تدريس اللغة الصينية في المدارس.

وحسب بحوث الصندوق سنة 2015 فاللغة الصينية هي الغالبة في الاستخدام في هونغ كونغ. فقد صرح 86.5 في المائة من المقيمين بأنهم يتحدثون اللهجة الكانتونية بشكل جيد. بينما ظلت نسبة من يحسنون الحديث بالإنجليزية أو الصينية الماندرين أقل من 25 في المائة لكل منهما.

ويرى 73 في المائة من المستجوبين أنهم يحسنون الكتابة بالصينية (نظام الكتابة واحد) بينما كانت نسبة من يحسنون استخدام الإنجليزية المكتوبة 23 في المائة بانخفاض نقطة واحدة عن بحث أجري في نفس الموضوع سنة 2012.

حدود وجمارك داخل نفس البلد

سلمت بريطانيا مستعمرة هونغ كونغ للصين نهاية سنة 1996، وذُرفت حينها كثير من الدموع في الجزيرة خوفا من أن تكون مغادرة بريطانيا إيذانا بعهد مختلف في الحكم والاقتصاد والحرية.

كان من ضمن ترتيبات مغادرة التاج منح جواز سفر بريطاني لكل من يريده من السكان وجعله حقا لكل المولودين قبل انتقال السيادة على هونغ كونغ إلى الصين.

وتمكنت الصين وبريطانيا من التوافق على شروط مفصلة حول وضعية الإقليم بعد عودته إلى "البلد الأم". تم إقرار نظام أساسي لـ "إقليم هونغ كونغ ذي الإدارة الخاصة" وباعتبار المصطلح المستخدم هوRegion فمن الممكن ترجمته في السياق المغربي إلى "جهة ذات إدارة خاصة."

قدمت من منطقة أو إقليم يثار فيه مصطلح "جهة" و"حكم ذاتي" باستمرار. وبالتالي انتبهت بشكل خاص إلى ترتيبات الحكم الذاتي في هونغ كونغ. كان النقاش حينها نشطا حول الحكم الذاتي

في الصحراء المغربية أو الغربية. وكان وما يزال يسوق باعتباره حلا مبتكرا لنزاع طال أمده حول السيادة على أقصى الشمال الغربي من الصحراء الكبرى.

الدهشة الأولى جاءت مع حقيقة أني أحصل على التأشيرة في مطار هونغ كونغ لدخول جزء من الصين ولكن لا بد من تأشيرة خاصة بالبر الصيني لدخوله. وطن واحد بتأشيرتين؟ سأكتشف لاحقا أن هناك تأشيرة خاصة بزيارة مدينة شين جين الصينية على الحدود مع هونغ كونغ وتعطى على الحدود نفسها وصلاحيتها خمسة أيام ولا يجوز لحاملها تجاوز المدينة. وأن ماكاو ، وهي إقليم مشابه لهونغ كونغ، له إدارة خاصة وحكم ذاتي واسع، وكان مستعمرا من البرتغال حتى بداية 1999، له هو أيضا تأشيرة خاصة.

المفارقة أني أجنبي أدخل هونغ كونغ بتأشيرة من المطار بينما يحتاج مواطن البر الصيني تأشيرة أكثر تعقيدا لدخول هونغ كونغ. وهي تأشيرة لها شروطها. وربما يكون عليها تحديد في عدد الزيارات المسموح بها خلال السنة.

مواطن يحتاج تأشيرة لدخول جزء من بلده؟ نعم. هو إجراء ضروري لأن هونغ كونغ منطقة جذب للهجرة بسبب تميزها الاقتصادي وجودة كل أنواع الخدمات المقدمة للمقيمين. وسكانها يشكلون نصف واحد في المائة من إجمالي سكان الصين. ولا بد من وضع حواجز وتنظيم صارم وإلا غرقت في سكان لا قبل لها بتدبير شؤونهم وخدمتهم.

نظام الهجرة في هونغ كونغ مستقل عن إدارة الهجرة الصينية. وكل إدارات الإقليم مستقلة عن مثيلاتها في البر الصيني. وبسبب حالته الفريدة فإن المصطلحات المستخدمة في مجال الهجرة تم صياغتها لتتناسب هذه الحالة ولا تسبب أي حرج.

في المطار تجد لوحات توجه الزوار لتسريع إجراءات ختم الجوازات: المقيمون في هونغ كونغ، الزوار من البر الصيني، الزوار الآخرون. التمييز هنا ليس بين "مواطن" و"أجنبي" وإنما بين "مقيم" و"زائر". لان الصيني لا يمكن وصفه بأجنبي في هونغ كونغ. حق الصيني في زيارة الجزيرة مقيد بالحصول على تأشيرة والإقامة مقيدة بالحصول على ترخيص بالإقامة من إدارة الهجرة. وإذا تجاوز صيني زائر مدة الإقامة المرخصة في الجزيرة يمكن إيقافه بتهمة "الهجرة غير الشرعية" وترحيله إلى "الجانب الآخر من الوطن".

وسط هذا التشديد بقيت نافذة هجرة مفتوحة نسبيا. فقانون هونغ كونغ ينص على أن كل مولود صيني في الإقليم يعتبر مقيما فيه. وبالتالي تقبل النساء من البر على الحضور للولادة في هونغ كونغ. ويضع ذلك حتى يومنا هذا ضغطا شديدا على خدمات المستشفيات لأن كثيرا من النساء لا تؤدين فواتيرها.

وللحد من هجرة الولادة تراقب شرطة الحدود بطون النساء. وقد عجبت مرة لأن شرطيا سأل سيدة كانت معنا في نفس سيارة الأجرة الكبيرة ونحن نعبر من شين جين لندخل هونغ كونغ، وختم الجوازات في ذلك المعبر يتم دون حاجة لمغادرة السيارة، "دوتزه" ومعناها "بطن" فمررت الفتاة الصينية يدها على بطنها لتشد الفستان الواسع المرتخي وتبين أنه ليس بطن حامل مقرب.

ويعبر بين هونغ كونغ ومدينة شين جين الملاصقة لها في البر الصيني عشرات الآلاف كل يوم وربما بلغوا مئات الآلاف في العطل الصينية. ويعتبر ترتيب دخولهم وخروجهم وتسريعه وتسهيله تحديا دائما لشرطة الحدود والجمارك الصينية والهونغكونغية.

والمعابر الحدودية متعددة. وبعضها للمشاة وأخرى للسيارات والشاحنات. حيث تعتمد الجزيرة بشكل شبه كامل على التموين من المواد الغذائية الطرية والمياه على البر الصيني. ويقيم عدد كبير من العمال والموظفين في هونغ كونغ في شين جين. وفي الصباح والمساء ترى مئات التلاميذ يعبرون للدراسة في هونغ كونغ والعودة لبيوتهم في شين جين.

ولكل من طرفي الحدود أولوياته الخاصة. هونغ كونغ تركز على مراقبة حق الأشخاص في العبور إليها، ومنع حمل منتجات زراعية أو دواجن حية أو أي شيء يمكن أن يهدد السلامة الصحية والصينيون يحاربون تهريب السلع من هونغ كونغ. وهو تهريب يشبه الوضع الموجود في سبته إلا أنه أقل وحشية. والعاملون فيه لا يحملون إلا طاقتهم من السلع. وعلى الخصوص يتم تهريب أجهزة الهاتف والمنتجات الإلكترونية وسلع الرفاهية المستوردة بسبب فارق الجمركة والضريبة على القيمة المضافة.

وأهم شيء هنا أن الحكم الذاتي وصل إلى درجة إقامة حدود وجمارك وعملة خاصة وميزانية ونظام اقتصادي مستقلين. السيادة الوطنية ليست مرادفا للمركزية. وليست عدوا للإبداع في إنتاج الحلول. والمرونة لا حد لها إلا حدود المصلحة.

تأشيرة الصين

بعد أيام من التجوال في هونغ كونغ تذكرت بأن الجزيرة إنما هي نقطة عبور لي لزيارة الصين. وذلك للاطلاع على فرص استيراد معدات معلوماتية أو منتجات وراقة من هناك.

صورة الصين في ذهني كانت هي الصورة التي شكلها الإعلام. بلد شيوعي كل شيء فيه صارم والدولة تتحكم في حياة الناس بشكل كامل. الزحام شديد وحياة الناس صعبة. والغش في الإنتاج وضعف الجودة هي الأصل.

كنت قرأت عن منطقة (شين جين) الحرة المحاذية لهونغ كونغ. ولأني لم أر منطقة حرة غير جبل علي في دبي فقد تصورت أنها تشبهها.

جبل علي حين زرته في يونيو2005 كان عبارة عن منطقة واسعة مخصصة لمستودعات ومكاتب شركات توزع منتجاتها على مناطق مختلفة من العالم من خلاله. لم يكن في المنطقة إنتاج وإنما كانت ميناء عبور لا تخضع فيه السلع للجمركة لأنها تدخل بغرض العبور إلى وجهتها النهائية. وكان حلا مناسبا للتسوق بالنسبة للتجار من بلدان عربية وإفريقية وآسيوية.

ومنطقة جبل علي صحراوية قاحلة وزمن الصيف تكون الحرارة بها كسائر ساحل الخليج مرتفعة بشكل لا يطاق. خارج مقرات الشركات يغلب على الجو والأفق لون ترابي بسبب الرياح والرمال والشمس. وبسبب ترامي مسافاته يتوجب على الزائر أن يحضر بسيارته الخاصة.

كنت أنظر بحذر أيضا إلى فكرة عبور هونغ كونغ إلى (شين جين) برا. فقد سمعت في تقارير إذاعية عن ازدحام المعابر. وتخيلتها مكانا يختنق فيه الناس من شدة التدافع، ويقضون الساعات في انتظار ختم جوازاتهم.

وكان علي أيضا الحصول على تأشيرة.

أعطتني موظفة الاستقبال في الفندق عنوان مكتب لخدمات السفر فذهبت إليه. الشاب الهونغ كونغي كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة مريحة. سألني عن وجهتي فقلت له (شين جين). سأل

مستغربا: (شين جين فقط؟) قلت له نعم.

كم تريد من سفرة؟ قلت له واحدة. لم أكن أعرف تفاصيل الفرق بين التأشيرات.

طلب مني صورة وجواز سفري وحوالي 400 دولار هونغ كونغي (55 دولار أميركي تقريبا) وقال لي عد مساء لأخذ الجواز.

كان في مكتبه كهل وكهلة أميركيان. سألاني عن خطة السفر فأخبرتهما بأني مبدئيا سأزور شين جين. قالا لي إنهما يزمعان أخذ القطار من هناك إلى بكين في رحلة طويلة شعبية عند السياح.

تحدثا وكأنهما يقترحان علي أخذ نفس الرحلة. ويبدو أنهما كانا يبحثان عن رفيق. وربما كانا مثلي متخوفين من الصين بسبب الصورة النمطية السلبية.

وفي العالم الصيني يكون كل غير الصينيين قبيلة واحدة. فتجدهم يتآلفون بسرعة. وقد لمست ذلك في تجارب كثيرة لاحقا. القبلية والقومية والانتماء دوائر تضيق وتتسع بحسب السياق.

"لقد حضرت في مهمة عمل" قلت لنفسي. وأكدت أن وجهتي هي المدينة القريبة فحسب. وتمنيت للكهلين رحلة موفقة.

تفرض الصين التأشيرة بناء على مبدأ المعاملة بالمثل. ولكنها سهلت للناس الحصول عليها بعد انفتاحها الاقتصادي وتحولها إلى سوق كبير يجذب كل العالم.

وفي إطار ذلك فتحت الباب للحصول على تأشيرتها في هونغ كونغ من خلال وسطاء أو من خلال مكتب الهجرة الصيني وهو أشبه بقنصلية فيما يقدمه من خدمات. إلا أنه لا يمكن أن يسمى كذلك باعتبار هونغ كونغ جزءا من الصين.

كانت التأشيرات أنواعا حسب الطلب. زيارة واحدة أو سفرات متعددة. شهر أو ستة أشهر. ولكل نوع مصاريف مختلفة.

السرعة وقلة الوثائق المطلوبة كانت سمة إصدار تأشيرات الصين في هونغ كونغ وحتى في الرباط وفق ما لمست لاحقا.

البلد الذي ظل طويلا مغلقا ومتوجسا من الأجانب وخائفا منهم انفتح على مصاريعه من أجل تنشيط الاقتصاد والتجارة.

سياسة تأشيرة صحيحة تسمح بتحقيق أهداف البلد التجارية والسياحية والاقتصادية عموما. وسياسة تأشيرة مزاجية، مثل المتبعة في المغرب حاليا، تضيع الكثير من الفرص وتحد من فعالية خطط السياحة والتجارة وتحرم البلد من فرص لا تحصى ولا تعوض.

لغة أو لهجة؟

يتكلم أهل (هونغ كونغ) اللغة الكانتونية. وهناك خلاف هل هي لهجة أو لغة.

الكانتونية مستخدمة للحديث والتواصل الشفوي في هونغ كونغ وأقاليم الصين المجاورة. مع استخدام الصينية المعيارية في الكتابة.

حالة مشابهة للعربية؟ نعم، مع بعض التعقيدات الإضافية.

الثنائية اللغوية الموجودة في المجتمع اللغوي العربي موجودة أيضا في هونغ كونغ. فاللغة التي يتكلمها الناس لهجة ليست هي نفسها الصيغة المستخدمة للنصوص المكتوبة.

وربما تصل نسبة الكلمات التي تستخدم في الحديث بالكانتونية ولا تصلح للاستخدام في الكتابة بالصينية إلى 40 في المائة من الرصيد اللغوي الكانتوني.

الفرق الموجود بين حالة العربية وحالة الثنائية اللغوية في هونغ كونغ هي أن الكانتوني والصيني لا يمكن أن يتفاهما من خلال الحديث. النطق والتركيب والصياغة مختلفة بدرجة تجعل كلا من لهجة كانتون واللغة الصينية المعيارية غير مفهومة لمتحدثي الأخرى.

وهنا الفرق بين الحالة العربية وحالة هونغ كونغ. فالعربية الفصحى تقرأ بطريقة متقاربة ومفهومة لكل العرب. ربما يجد عربيان صعوبة في فهم كلام بعضهما باللهجات المحلية، ولكن لو وضعا نصا مكتوبا أمامهما فسيقرآنه بطريقة مفهومة لهما معا. فمخارج الحروف ظلت هي نفسها.

بينما تقرأ الصينية من طرف أهل هونغ كونغ بأصوات مخالفة لطريقة قراءة متحدثي الصينية المعيارية. إذا نظر الطرفان إلى النص فهماه معا وكل منهما يقرأه بطريقة مختلفة اختلافا بينا.

وتشبه الثنائية اللغوية في هونغ كونغ الحالة اللغوية في الجزء الألماني من سويسرا. فاللهجة

الألمانية السويسرية غير مفهومة في البلدان الأخرى الناطقة بالألمانية. وإذا بثت وسيلة إعلام ألمانية حوارا مع سويسري ألماني باللهجة السويسرية فإنها تحتاج لأن تضع على الشاشة نصا يوضح ما يقوله.

هذا الواقع يجل التلميذ في هونغ كونغ بحاجة لدراسة ثلاث لغات. أو بتعبير الأوساط التعليمية في الجزيرة: لغتين وثلاث لهجات. اللغتان هما الصينية والإنجليزية. واللهجات هي الصينية الكانتونية، والصينية المعيارية (صينية بكين) والإنجليزية.

وقد نشط النقاش خلال العقود الماضية حول التصرف مع الكانتونية. وظهرت دعوات لتركها. إلا أنها لم تحقق أي تجاوب. فاللهجة مستخدمة في الحديث والإعلام والإنتاج الفني والتواصل بين الناس. وهم ينظرون إليها باعتبارها مكونا أساسيا من مكونات هويتهم.

والنقاش الحالي هو حول استخدام الصينية المعيارية لغة تدريس خاصة للغة والأدب الصيني.

وربما يبدو غريبا، مقارنة مع تجارب المغرب الكبير، أن تكون الصينية حافظت على مكانتها و أوليتها في هونغ كونغ برغم تفرد الإنجليزية بوضع اللغة الرسمية لعقود طويلة وتأخر مغادرة بريطانيا لها.

ألا يبدو إغراء أن يترك الناس عناء تعلم لغة بلهجتين وبطريقة كتابة معقدة للغاية ويخصصوا كل جهدهم للغة الأولى في العالم، خصوصا أنها تفتح لهم أبواب الدراسة والعمل والتجارة؟ وأن نسبة كبيرة منهم يحملون جوازات بريطانية؟

الظاهر أن قوة الإغراء العملي المادي لم تكن أقوى من نوازع الهوية وانتقال الثقافة الطبيعي من جيل للذي يليه. واهتمام الناس بتعلم لغة المستعمر لم يكن بإحلالها مكان لغتهم الأم وإنما كان تعلم لغة إضافية.

وبخصوص للاستخدام الفعلي يغلب بحسب الإحصائيات استخدام الكانتونية في الحديث بنسبة كبيرة على لغة تواصل الجمهور. وتحسن نسبة أكبر من الناس الكتابة بالصينية مقارنة مع من يحسنون مهارات الكتابة بالإنجليزية.

كما يلاحظ توسع مجال استخدام الصينية في البرامج والإعلام على حساب الحيز الإنجليزي، حيث تتحول بعض البرامج من الإنجليزية للصينية.

ويدعم صندوق اللغات في الإقليم مبادرات لاستخدام الصينية المعيارية لغة لتدريس مادة الصينية في عدد من المدارس في أفق توسيع أو تعميم التجربة.

وينظر إلى تحدث الصينية المعيارية في هونغ كونغ باعتباره يفتح للطالب فرصا إضافية لإتمام التعليم داخل الصين أو العمل والاستثمار بها فهي الشريك الاقتصادي الرئيسي للجزيرة المتمتعة بالحكم الذاتي.

نعم، الصين الأم هي الشريك الرئيسي لإقليم يشكل جزءا منها. فاقتصاديا، تتمتع هونغ كونغ باستقلال تام عن الوطن الأم. هو وطن غير مهيمن ومسيطر على التفاصيل على النحو الذي ألفناه.

هونغ كونغ عضو في المنظمات الدولية الاقتصادية والرياضية والاجتماعية عضوية خاصة بها. وهي تفاوض عن نفسها في التجارة الدولية. ولها اختياراتها الخاصة التي جعلتها لسنين طويلة أكثر المناطق حرية اقتصادية في العالم.

الصينية في الصين هي "اللغة"

أخذت جواز سفري من مكتب الخدمات السياحية وتوجهت إلى (لو وو) وهي إحدى المعابر الحدودية بين هونغ كونغ وشين جين. والحدود هي نهر شين جين. ويلاحظ وجود سياج لحمايتها من المتسللين.

مبنى الحدود في جانب هونغ كونغ بناية كبيرة تتضمن الكثير من المحلات التجارية. الحركة دائبة والعابرون يصنفون أنفسهم تبعا لعلامات التشوير البارزة إلى أصناف (المقيمون في هونغ كونغ) و(الزوار من البر الصيني) و(الزوار الآخرون). أنا من "الآخرين" لذلك دخلت معهم وأخذت دوري لختم الجواز.

يأخذ شرطي الجوازات الهونغ كونغي نسخة النموذج الكربونية التي تمت تعبئة أصلها عند الدخول ويختم الجواز.

لاحظت أن شرطة الحدود في هونغ كونغ والصين يعملون مثل آلات. عندهم حركات محددة ولا يدخلون أبدا في دردشات زائدة مع الزوار. ربما يطلبون استجوابا إضافيا في مكتب آخر، ولكنه يتم بطريقة احترافية أيضا. ولا مجال أبدا لإكرام الشرطي بأي شيء. واضح أنهم مدربون جيدا وتحت رقابة صارمة وأن طريقة العمل محددة وليست اجتهادية مفتوحة.

بعد شرطة حدود هونغ كونغ يتم العبور إلى الجانب الصيني، وكل ذلك صيني، ولكنها مصطلحات للتوضيح، ولا مشاحة في الاصطلاح.

هذه المرة توضح العلامات أن على العابرين أن يتقسموا إلى (مقيمون في هونغ كونغ ومكاو) و(مقيمون في تايوان) و(مواطنون صينيون) و(أجانب.)

يتم تعبئة نموذج بمعلومات الزائر ويتم ختم الجواز بسرعة لا يؤثر فيها إلا درجة الازدحام وطول صفوف الناس أمام نوافذ شرطة الحدود.

يتم العبور بالجمارك الصينية ثم الخروج إلى حي (لوهو.)

أهم ما فاجأني هو أن الصورة التي كانت عندي حول المنطقة التجارية الحرة أو (المنطقة الاقتصادية الخاصة) مختلفة تماما عن نموذج جبل علي في الإمارات.

كانت (شين جين) حتى 1978 مدينة صغيرة يعيش سكانها (30.000) على الصيد وعلى الاستفادة من هونغ كونغ المجاورة وعلى أمل الهجرة إليها. ثم قررت الصين إنشاء منطقة اقتصادية حرة تستفيد من هونغ كونغ ومن فرص الصين.

لنجاح المنطقة تم فصل اقتصادها وميزانيتها عن الميزانية العامة للصين. وتم منحها حق وضع قوانين خاصة بها. ووضعت تحفيزات قوية لجذب المستثمرين من كل العالم وخاصة من هونغ كونغ نفسها.

حققت المنطقة نموا هائلا وتحولت (شين جين) إلى مدينة كبيرة يصل عدد سكانها حاليا إلى 18 مليون ويقال إن اقتصادها يشكل 1 في المائة من اقتصاد العالم. وحجم ناتجها الخام يزيد على الناتج الخام لدولة البرتغال.

تخصصت (شين جين) في صناعة المعلوميات والمالية ووفرت لذلك بنية تحتية جعلتها لسنوات أكثر مدينة في انتشار أجهزة الكمبيوتر عالميا.

كنت وقت وصولي لأول مرة للمدينة سنة 2005 في المكان المناسب لإنجاز مشتريات في مجال المعدات المعلوماتية فالمدينة مركز إنتاج هذه المعدات وتتوفر على واحد من أكبر أسواق العالم لها.

وكل ذلك باللغة الصينية. كان واضحا جدا أنه لا مجال لإنجاز مشتريات هنا بدون معرفة اللغة الصينية أو الاستعانة بخدمات مترجم. لم يكن يحسن الإنجليزية إلا بعض الباعة في الشركات

الكبيرة والمتوسطة أو أشخاص يعملون في مكاتب الوساطة التجارية. وكان ضروريا العمل معهم للتفاهم مع أرباب عمل تعتبر الصينية عندهم هي (اللغة) وما سواها (لغات.)

كانت فرصة للتأمل في دور اللغات الأجنبية في تحقيق النمو. أكيد لو كان الأمر يتوقف على اللغات الأجنبية لكان المغرب أو الفلبين أكثر إنتاجية وقوة اقتصاد بكثير من جمهورية الصين الشعبية.

قانون اللغة الصينية[4]

ينص قانون اللغة الصينية على وجوب استخدام اللغة الصينية القياسية المبنية على لهجة بكين في:

- التواصل الشفهي و الكتابي في الإدارة
- وسائل الإعلام
- التعليم

و يشجع القانون استخدام الصينية في قطاع الخدمات. و يحث على الالتزام بقواعدها النحوية و الإملائية.

و يعطي الحق لكل مواطن في تقديم شكوى و اقتراحات في حالة ملاحظة أخطاء في استخدام اللغة في المجال العام. و يمنح الجهات الإدارية المختصة حق التدخل لطلب تصحيح الخطأ أو فرض تصحيحه عند الحاجة مع تحذير الطرف المرتكب للخطأ و إمكانية معاقبته إداريا.

و يفرض القانون إجادة الموظفين للغة الصينية.

و يحدد الجهات المكلفة بوضع معايير لترجمة الكلمات و أسماء الأعلام الأجنبية.

و يسمح قانون اللغة الصيني باستخدام اللهجات و لغات القوميات بحسب الحاجة. و ينص على وضع نص صيني توضيحي عند كل استخدام للغة أجنبية في التعليمات المرافقة للمنتجات أو تعليبها لكل منتج موجه للسوق الصيني.

[4] . قانون اللغة الصينية (ترجمة إنجليزية على موقع البرلمان الصيني)
http://www.npc.gov.cn/englishnpc/Law/2007-12/11/content_1383540.htm

و يلاحظ أن مقتضيات قانون اللغة الصينية مختصرة (28 فقرة) و قوية و واضحة. و أن القانون مخصص للغة الصينية و لا يذكر اللغات الأجنبية إلا في إطار حماية استخدام اللغة الصينية أو النص على إمكانية استخدام اللغات الأجنبية في الحالات التي يسمح فيها القانون بذلك.

و لا يتضمن القانون تشجيعا أو حثا على تعلم اللغات الأجنبية.

متى ينتهي الصيني من تعلم الكتابة؟

لا ينتهي الصيني من تعلم الكتابة أبدا ما دام يقرأ جرائد وكتبا وغيرها. فكل كلمة جديدة يتعلمها أو تستجد على اللغة يكون عليه أن يتعلم كتابتها ونطقها.

الصينية واليابانية وعدد من لغات شرق آسيا لا تتوفر على نظام حروف أبجدية مماثل للغات السامية والهند-أوربية.

وإنما تعتمد نظاما من الرموز التي يتوجب حفظها. مما يجعل تعلم الكتابة أمرا صعبا ومستمرا.

وقد وضعت أنظمة لكتابة الصينية واليابانية وغيرها باستخدام الحروف اللاتينية. وهي أنظمة فعالة وسهلة. ولكن الصينيين واليابانيين لم يقبلوها واستمروا في استخدام أنظمتهم الخاصة، بدون أن يعوق ذلك نظامهم التعليمي أو الإنتاج الفكري والنشر والصحافة والإعلام.

بل جعلوا حروفهم مصدر فخر وعزة باعتبارها علامة على الهوية. فهي واضحة بارزة ظاهرة في كل شوارعهم ومبانيهم وعليها يعتمدون في الكتابة ولا يرضون بها بديلا.

الهوية لا تخضع للحلول العملية ولا تأبه بها.

قوائم طعام بالحرف العربي

لاحظت كثرة مطاعم "الحلال" في (شين جين). ظننت في البداية أن من يرتادها ويعمل فيها من المسلمين ثم اكتشفت لاحقا أن طعام المسلمين له شعبية واسعة بين كل الصينيين.

في الصين لا يوجد طعام "صيني" وإنما توجد فنون طبخ جهوية متعددة من بينها مطبخ بكين، ومطبخ شنغهاي ومطبخ خونان ومطبخ شينجيان (الإيقور المسلمين) ومطبخ منغوليا ومطبخ غواندونغ ومطبخ خُنان مع وجود فروع عديدة لهذه المطابخ.

ويقول الصينيون إن كل واحد من هذه الأنواع يتميز بخصائص لا توجد في غيره. فبعضها حار لاذع وآخر حلو وآخر حامض في تفصيل يستحق اطلاع هواة تذوق الطعام.

وتنتمي مطاعم المسلمين لمناطق مختلفة. وبعضها يشتهر بالشعرية بينما تعرف مطاعم الشينجيانيين بالشواء للحوم الضأن خاصة.

وكلما كان المطعم أكثر فخامة كان أشد إظهارا لهويته من خلال الديكور والأواني المستخدمة واللوحات والموسيقى. وهم يتفننون في ذلك ويبدعون.

وقد فاجأني حينها عادة تقديم الشاي للزبون بمجرد جلوسه. والشاي يقدم بدون سكر. ونوعه يعتمد على هوية المطعم ودرجته. وهو مجاني. وبعض المطاعم تتوفر على عمال يصبون الشاي من الأباريق بطريقة بهلوانية تضفي على وقت انتظار إحضار الطعام بهجة وإثارة.

وتطبع مطاعم الإيقور قوائمها بالإيقورية والصينية. وهكذا ترى في هذه المطاعم حضورا قويا للحرف العربي نفتقده في مطاعم بلدان المغرب الكبير (العربي؟)

كما تجد على جدرانها لوحات بالخط العربي لحكم وأقوال إيقورية. واللافتة على باب المطعم تكون باللغتين والخطين الصيني والإيقوري (العربي)

من بين هذه المطاعم كنت أتردد على مطعم المسلم. وله فروع عديدة بشين جين. وكانت خدمته تتميز بترديد العمال لعبارة الترحيب الصينية كلما دخل زبون. وبكثرة الأطباق المتوفرة.

وشين جين من الوجهات المفضلة للإيقوريين برغم بعدها الشديد من بلادهم. فالرحلة بين

(أورومونتشي) عاصمة إقليم شينجيان و(شين جين) أربع ساعات بالطائرة.

وللإيقوريين حي خاص بهم تقريبا يوجد فيه شارع تنتشر فيه مطاعمهم وهو من الوجهات الشعبية خاصة في المساء. فعلى طول الرصيف تنتشر طاولات المطاعم وبينها تجد عربات إعداد خبز (النان) الذي ينفرد به الشينجيانيون في بلاد لم يكن الخبز فيها مكونا غذائيا أساسيا.

كانت أسعار الخدمات في الصين في 2005 منخفضة مقارنة بالمغرب. لكنها ارتفعت بوتيرة سريعة بسبب التضخم وكثرة ما يدخل البلد من الأموال حتى صارت الآن مطبوعة بالغلاء بشكل عام.

الحرف الصيني ملء البصر

كنت حيثما وليت وجهي في شوارع (شين جين) أرى الحرف الصيني بكل الألوان والأحجام والخطوط.

في المناطق الشعبية والراقية على حد سواء إما أن تكون لافتات المحلات بالحرف الصيني وحده أو تكون معها أسماء بالحرف اللاتيني خاصة إذا تعلق الأمر بماركات مشهورة.

لاحظت نفس الشيء في هونغ كونغ وماكاو وتايوان. لا يمكنك أن تنسى أنك في العالم الصيني بسبب الحرف الصيني الذي يذكرك بذلك طوال الوقت.

فشلت فكرة استخدام الحروف اللاتينية بدل الرموز الصينية المعقدة في مناطق الكتابة الصينية باستثناء فيتنام التي تبنت النظام اللاتيني.

أدخلت الصين شيئا من التبسيط على نظام الكتابة بإنقاص عدد مكونات بعض الرموز المستخدمة بكثرة. فأصبح نظام الكتابة المستعمل داخل الصين يسمى (الصينية المبسطة.)

رفضت هونغ كونغ وماكاو وتايوان بدعة التبسيط هذه واستمرت في استخدام (الصينية التقليدية) حتى اليوم.

لنلاحظ أن المناطق الأكثر تعاملا مع الغرب وتأثرا به وانفتاحا عليه واعتمادا على التبادل الاقتصادي معه هي الأكثر تشددا فيما يتعلق بالهوية.

اليوم، توفر الحكومة الصينية الوثائق والمواقع الإلكترونية الموجهة للصينيين خارج البر بصيغة الصينية التقليدية.

وكل المطبوعات والمنشورات الإلكترونية الصينية خارج البر تتم بهذا الخط.

(الصينية المبسطة) بالغة التعقيد على للمتعلم الأجنبي فكيف بـ (الصينية التقليدية). ومع ذلك لم يحل التعقيد دون أن تنشر بهذا الخط كتب في الطب والهندسة والمعلوميات والفضاء وعلم النفس والاجتماع وكل المواضيع.

كنت كلما رأيت كشك جرائد أو مكتبة تفحصت المحتويات علي أصادف مطبوعا تمكنني الاستفادة منه.

في هونغ كونغ تتوفر بعض الجرائد المحلية بالإنجليزية. وتتوفر الصحف الأجنبية وخاصة البريطانية والأميركية. وتوجد في المكتبات أجنحة خاصة بالكتاب بالإنجليزية. وإن كانت السمة الغالبة على المعروضات هي الصينية.

أما على الجانب الصيني فلا يكاد يوجد مطبوع غير صيني في المكتبات والأكشاك.

المعروضات كثيرة جدا. وكثير منها بعناوين غربية. ولكنها نسخ محلية مترجمة. فكثير من المجلات الغربية في مجال الصحة والمرأة والرياضة ونمط الحياة تتوفر على نسخة صينية.

لم أر في شين جين منشورا إنجليزيا سوى جريدة يومية بسيطة تسمى (يومية شين جين). وتستهدف الجالية الأجنبية المتنامية في المدينة.

حتى في المطارات ومحطات القطار كانت أكشاك الجرائد والكتب صينية خالصة. ربما يكون للمحل عنوان بالإنجليزية، لكنك تقترب وتتفحص وتجد أن عليك تعلم اللغة المحلية قبل أن تستفيد شيئا مما هو معروض.

وهذه حالة مختلفة تماما عن الوضع في المغرب.

في المناطق الراقية تحس أن الحرف العربي مستبعد ومنفي. كأنه يناقض الجمال والرقي والمجد. الفنادق والمحلات والمقاهي حريصة على أن تكون أسماؤها بخط لاتيني بارز.

والإعلانات وقوائم الطعام وتنبيهات الأمان وقواعد السلوك وإعلانات التخفيضات كلها بالفرنسية.

يتم ذلك إرضاء "للسياح" وما أكثر ما يتم في بلداننا باسم مصلحة "سياح" عابرين على حساب "سكان" دائمين.

وليس واضحا، بناء على أي حساب منطقي أو إحصائي، تقرر أن لغة مخاطبة "السياح" عالميا هي الفرنسية.

ولم تم استبعاد الخط العربي الجميل وهو يمكن أن يضيف إلى جمال شوارعنا وأزقتنا ومدننا إضافة كبيرة. بعض البلدان غير العربية ممن يستخدم نظام الخط العربي تحتفل بهذا الخط وتبرزه وتفخر به أكثر مما تفعل بلدان يعتبر فيها العنصر العربي أغلبية. وباكستان وإيران نموذجان لذلك.

هذه فرصة لتفكر وأنت تقرأ هذا المنشور: بم يرتبط الخط العربي في ذهنك؟ بمعان إيجابية جميلة؟ أو بالفوضى والضعف والفقر؟

الإجابة مؤشر مهم على علاقتك بهويتك. العالم الصيني خرج من الفقر والفوضى والضعف إلى الثروة والنظام والقوة دون أي تفريط في رموزه.

تخربيقولوجيا[5]

يحك المثقف المغاربي رأسه وينطق كلمة فرنسية أصلها يوناني ويحسب أنه أمسك ذيل السبع.

الوسط "الثقافي" و"الأكاديمي" ربط المعرفة بالرطانة بلغة أجنبية. ولما كان أغلب أساتذة الجامعات لا يحسنون من اللغات الأجنبية إلا الفرنسية فقد صارت الفرنسية هي "اللغات الأجنبية" وهي "اللغة الحية".

ولا تكون الندوة ندوة إلا بالفرنسية أو مزدوجة اللغة. ولو حضر أجنبي واحد تحول الجميع

---

[5] . "تخربيقولوجيا" تركيب كلمة "تخربيق" الدارجة والتي تعني "هراء" وكلمة "لوجيا" اليونانية المستخدمة بمعنى "علم". والقصد من التركيب السخرية من مبالغة المثقف العربي في استخدام كلمات معقدة ومصطلحات مستعارة من لغات أجنبية.

من أجله للتحدث بالفرنسية وإن كان الشخص من منطقة الفلاميين ببلجيكا وهم لا يطيقون الفرنسية.

وقبل مدة حضرت ندوة بالرباط فكان سلوك الرموز الثقافية المغربية علامة على منزلة اللغات الوطنية عندهم.

تكلم مصطفى السحيمي فرنسية خالصة مع أن الموضوع كان عن الربيع العربي وبحضور ضيوف من المشرق.

وكان رفيقه الطوزي أقل تشددا. فتحدث بالعربية. ولكنه كان يتوقف من حين لآخر ليعبر بمصطلح أو جملة فرنسية ويقول إنه لم يجد ما يرادفها في العربية.

ولا أدري كيف كان على الصينيين أن يتصرفوا لو فكروا بنفس الطريقة.

فالصينية تعتمد في تكوين الكلمات والمعاني على مقاطع صوتية. ومن أجل النبرة فهي تكون مقاطع طويلة. فليس في الصينية إمكانية أن تتوالى الحروف الساكنة على النحو الموجود في اللغات المألوفة عندنا. إلا ما كان في الأصوات (تس) و(تج) و(تش). فالمقطع الصوتي لا بد أن يشمل في آخره مدا واضحا.

أدى هذا السلوك اللغوي إلى محدودية رصيد الأصوات التي يمكن الأخذ منها لتكوين الكلمات. وهو أمر وضع تحديا أمام الصينيين في نحت كلمات جديدة. فصار عدد كبير من الكلمات متشابها صوتيا وإن اختلفت كتابته ومعناه. ولذلك يعتمد الصينيون في فهم الخطاب، وخاصة منه المتخصص، على السياق وما يسبق الكلمة ويليها.

في ظل هذا الوضع هل أخذ الصينيون كلمات "اللوجيا" وأدخلوها لغتهم؟ أبدا. لقد ترجموا كل كلمة لصيغة صينية. بحيث لا تسمع "سوسيولوجيا" ولا "بيولوجيا" و"إيديولوجيا" بل تسمع مرادفاتها الصينية.

وقد طلبت من صديقي عبد القادر بوعيدة، باعتباره يحسن الصينية أن يبحث في حضور "اللوجيا" في كلام الصينيين فأكد أن كل الكلمات "اللوجية" ترجمت لصيغة صينية بحتة.

لذلك على نخبتنا المثقفة أن تعي أن قولك "عقيدة" بدل "إيديولوجيا" لا يفسد المعنى. وأن "علم المجتمع" أنسب لحديثك العربي من "سوسيولوجيا" وأن "علم النفس" تناسب السياق العربي ويفهمها عدد أكبر من الناس من تكلف "بسيكولوجيا" أو "سايكولوجيا".

تكلف الكلمات الصعبة على الجمهور لإظهار التفوق والمعرفة كان دائما أمرا ممقوتا ومحتقرا في المجتمع العربي. وقصص النحويين الذين يبحثون عن عبارات صعبة وما تعرضوا له من سخرية كثيرة ومشهورة. ويكفي اسمه للتعبير عنه فهو يسمى "التقعر".

ومن قصصهم في ذلك خبر الرجل الذي وضع في المسجد رقاعا يريد الناس أن يدعوا لأمه المسنة التي خرفت وصارت تأكل الطين، فكتب "صِينَ امرؤ ورُعَيَ دعى لامرأة أنقحلة مقسئنة قد منيت بأكل الطرموق فأصابها من أجله الاستمصال أن يمن الله عليها بالإطرغشاش والإبرغشاش" فكان كل من قرأ رقعته دعى عليها ولعنه ولعن أمه.

وضوح الخطاب وبساطته من صفات المعرفة. وتعقيد اللغة والتقعر يعبر عن عجز المتحدث وجهله. ومن أشد أنواع التقعر استخدام كلمات أجنبية بدون ضرورة.

أحبك كما يحب الفأر أكل الأرز

قرية (شين جين) تحولت خلال ربع قرن إلى مدينة من ناطحات السحاب.

ولأنها مدينة حديثة فقد خططت بشكل جيد. فالشوارع فسيحة والساحات كثيرة والحدائق منتشرة حتى لقبت (مدينة الحدائق.)

وتجد العمارة الواحدة تحتوي عددا كبيرا من المكاتب والفنادق وربما المدارس الصغيرة.

وقد أقمت مرارا في فنادق تحتل طابقا أو عدة طوابق من عمارة. وقد ازدهرت الصناعة الفندقية مع انفتاح الصين واشتدت المنافسة مما وفر للزبناء فرصة الاختيار والحصول على خدمات جيدة.

أغلب الفنادق توفر غلاية ماء والشاي والقهوة في الغرفة. ومع منشفة الاستحمام يتم وضع فرشاة ومعجون أسنان مع تشكيلة الصابون. كما يتوفر ماء الشرب مجانا. وعموما يعتبر مستوى

الخدمات أفضل من نظيره في الفنادق المغربية.

كان الشاب في مكتب الاستقبال بالفندق حيث أقمت عند وصولي لأول مرة في يونيو2005 يتحدث من العبارات الإنجليزية ما يتفاهم به مع الزبناء الأجانب وهم نسبة مهمة من الزوار. ولكنه لم يكن بأي حال يحسن اللغة.

عدت ذات مساء فلم أره وراء المكتب الصغير وإنما رأيت فتاة شقراء يبدو عليها الذعر. قالت لي (ماوس... ماوس .... ذير إز أ ماوس إن ذ الروم). وأشارت إلى اتجاه غرفة يصدر منها ضجيج.

وجدت عامل الاستقبال رفقة شاب آخر مسلحين بمكنستين وهما يبحثان عن فأر تسلل من ثقب بجدار الغرفة.

الشاب والشابة إسرائيليان حضرا في زيارة سياحية. والصين من الوجهات المفضلة للإسرائيليين. الفتاة أصرت على أن يتم القبض على الفأر لتعود للغرفة. وعامل الاستقبال أكد بما يستطيع من كلمات وإشارات أن الماوس لن يعود ما دام ثقب الحائط أغلق.

كانا قد قلبا كل أثاث الغرفة وكان الفأر قد غادر لمنطقة أكثر أمانا بالطبع. لكن الفتاة ظلت مصرة على القبض عليه فيما كان صاحبها يحاول إقناعها بالعبرية بأن المكان أصبح آمنا.

والفئران والجرذان من الآفات التي تتحدى المدن الحديثة. وقد أتعبت مصالح البلديات في محاولة القضاء عليها. فهي مصرة على السكن والتكاثر بدون أي تنظيم للنسل في الأقبية والأسقف المعلقة والمجاري.

والظاهر أن صورة الفار في الثقافة الصينية ليست بذلك السوء. فهو يقدم في بعض الوجبات. ودورة السنوات الصينية تتكون من اثنتي عشرة سنة تبدأ بعام الفأر.

وللفأر حضور في الأدب والحب أيضا. فقد صادفت حينها انتشار أغنية يسمعها الزائر تبث في كل مكان تقريبا. وتتكرر بالأغنية لازمة تقول:

أحبك حبا كحب الفأر أكل الأرز.

وكان معلم موسيقى مغمور يدعى (يانغ تشينغ غانغ) طرح الأغنية على الإنترنت في السنة السابقة فكانت أول تجربة تحقق نجاحا واسعا عن طريق الإنترنت في الصين. وأحب الجمهور طريقة أداء لازمة (أحبك حبا كحب الفأر أكل الأرز) فكانت سببا أساسيا في نجاح الأغنية في كل العالم الصيني. بل إنها ترجمت وتم أداؤها بلغات أخرى[6].

كل لغة تخفي خلفها ثقافة ومواقف ورؤية للعالم تختلف عما سواها. فاللغة تحمل معها إرثا ثقافيا لو فصل عنها لانعدمت. ولا يتم إتقان لغة إلا بضبط مجازها وآدابها ودلالات ما تحيل عليه من معان وصور.

الجولة رفقة (هان)

اتضح لي بعد أيام من التجوال في شين جين أن اقتناء مشتريات يحتاج إلى مساعدة من شخص يعرف البلد ويحسن لغته.

وهي خدمة توفرت في الصين مع انفتاحها على العالم وتحولها إلى وجهة للتجار من كل العالم.

فتح الصينيون والأجانب من كل الجنسيات مكاتب خدمات تساعد الشركات والتجار على الوصول لمصادر السلع وتتابع الإنتاج وتقوم بمراقبة الجودة والتسليم والشحن وإعداد الوثائق المطلوبة للتصدير.

التقيت (هان) وهو شاب من إقليم خونان في مطعم فقدم نفسه كمترجم ومنسق تجاري. وبدأنا جولتنا في الأسواق.

كان يبدأ بالبحث في موقع (علي بابا) وغيره من المواقع التجارية الصينية وينسق زياراتنا لمصانع أو محلات بحيث كنا نتحرك في الصباح الباكر ولا نعود إلا آخر الليل.

المصانع الصغيرة لم تكن تتوفر على من يتحدث لغة غير الصينية. والمصانع المتوسطة

---

[6] . نص الأغنية باللغة الصينية مرفقا بترجمة للإنجليزية:

https://www.youtube.com/watch?v=P9njO8cyo-M

والكبرى والمشتغلة في التصدير لديها عادة بائعون شباب يتكلمون الإنجليزية أو لغات البلدان المستهدفة بالتصدير.

ولكن لم ألتق خلال تلك الرحلة أي رب عمل أو تقني يتكلم غير الصينية.

المحاسبة والفواتير وتدوين الملاحظات والعمل الإداري كله صيني بحت. وتتم ترجمة الفواتير لفائدة الزبناء الأجانب حسب الحاجة. وربما تكون ترجمة غامضة وكثيرا ما تعتمد على الترجمة الآلية.

الكل يستخدم برمجيات صينية. وتعليمات التقنيين والتوجيهات على جدران المصانع وتوجيهات الأمان وغيرها من المعلومات بالصينية وحدها.

هنا سأنتبه إلى أن المعلوميات ليست بالضرورة بالفرنسية كما حاولوا أن يقنعونا في المغرب.

مرة طلبت من تقني إصلاح عطب في جهاز كمبيوتر يعمل بواجهة عربية، فقال "ما عنديش مع ديك أنقر". يظن المسكين أن كل العالم يشتغل بـ "كليكي[7]". وهكذا أوهموه في المعهد المتخصص للتكنلوجيا حيث درس. استبعاد العربية عندهم نوع من الرقي.

(هان) من إقليم (خونان) وهو إقليم شمال (شين جين) وإليه ينتمي (ماو تسي تونغ). وأهله مشهورون بأنهم موظفون جيدون ومخلصون. وأن فيهم سذاجة. بعكس ما يعرف به أهل إقليم (خنان) شمالهم من مكر وكيد. وعموما تجد أقاليم الصين ومدنها وقراها تشتهر بأوصاف يعممونها على بعضهم بدون أي دليل علمي طبعا.

كان (هان) حديث عهد بالبادية. وقد جاء إلى شين جين مثل مئات الآلاف من الشباب بحثا عن فرصة للعمل وتحقيق الثروة. كان التفاؤل والحماس للعمل صفة طاغية على السنوات بين 2005 و2008 فالكل مؤمن بأن لديه فرصة في الاستفادة من صعود الصين كمصدر أساسي لكل أنواع التجارة.

---

[7] . الكلمة المقابلة لـ "أنقر" الشائعة في الاستخدام المغربي هي الكلمة الفرنسية Cliquez

متابعة حديث (هان) مع أصحاب المحلات وترجمته الهاوية شيء ممتع. كنت أحاول تبين أصوات اللغة الصينية وتقليدها ولكن مع قليل من النجاح. أسمع الكلمة فأنطقها فيقولون إنها غير مفهومة وإنهم ما نطقوها قط. والسبب كان في النبرات التي لا عهد لي بها. أي خطأ في النبرات يفقد الكلمة معناها أو يحولها إلى معنى آخر قد يكون مناقضا تماما. وربما محرجا.

تطلب عملنا الجولان في ضواحي شين جين والمدن القريبة منها. أثار انتباهي البنية التحتية الهائلة للوجيستيك. شين جين كانت محاطة بثلاثة موانئ، يختار التاجر أو شركة الشحنأقربها إليها لتوجيه الحاوية. والنقل البري متوفر. ومحطات شحن السلع واسعة ومجهزة بحيث يكون التجميع سهلا وسريعا وآمنا.

شركات النقل منتشرة في الصين وتعمل بأسعار معقولة وسرعة كبيرة. وبفضلها يتم تجميع السلع من مناطق مختلفة في بلد مساحته كبيرة جدا. والصناعة تتوزع على مناطقه حيث تجد كل نوع من الإنتاج يتركز في منطقة أو إقليم بحسب سياسة الحكومات المحلية، والدعم الذي تقدمه لصناعة محددة.

استغربت أيضا مساحات المصانع والمحلات والتي تتسم بأنها في الغالب واسعة كبيرة. مما يخالف الصورة النمطية للمساحات الصغيرة والازدحام الشديد المرتبطة في أذهاننا بالصين.

بعض المصانع كبير كأنه حي مستقل بمبان عديدة يتوزع فيها الإنتاج والتخزين والإدارة وسكن العمال.

والصينيون محبون للفخامة ويحاولون إعطاء انطباع جيد للزبون والزائر. ويذهبون في ذلك إلى أبعد مدى. بل ربما لجؤوا إلى الحيلة والتمثيل. ولذلك ظهرت في السنين الأخيرة مهنة ممثلين من الأجانب يتم استدعاؤهم ليظهروا أمام زبون حقيقي محتمل كأنهم زبناء قدماء للمصنع أو جزء من فريقه الإداري. وذلك للتأثير في الزبون ودفعه للثقة وإتمام الصفقة بدون تردد.

هاتف تفاحة

حتى أسماء الماركات العالمية في الصين معروفة بصيغ صينية.

نحن نظن اسم الماركة والماركة نفسها تفقد جزءا من قيمتها إن نطقناها بطريقة خطأ. فنحرص على نطق اسم كل ماركة نطقا سليما سواء كانت يابانية أو ألمانية أو أميركية وإن تجشمنا في ذلك مشقة وعنتا.

أما في الصين، فبمجرد أن تقرر ماركة عالمية دخول السوق يكون عليها البحث عن اسمها الصيني. فهو يجب أن يكون اسما سهلا وأن تحيل أصواته على معان جميلة ومتفائلة. وصيغة الاسم المكتوبة بالصينية يجب أن تكون جميلة أيضا. فالصينيون أهل ذوق وأهل فأل وتطير.

«آبل» مثلا لم تشق على نفسها. وجعلت اسم الماركة بالصينية «بينغ غوو» ومعناه «تفاحة».

تخيل الذهاب لمحل آبل في مركز تجاري عربي أو حتى في سوق درب غلف الشعبي في الدار البيضاء والسؤال عن أجهزة كمبيوتر «التفاحة». كم ستظهر جاهلا ومتخلفا ومثيرا للشفقة.

مرسيدس الألمانية اختارت أن تصبح «بين تشي» وهي تحويل لاسم «بينز» إلى صيغة صينية تحيل على معنى السرعة مما يوافق صورة الماركة ويخدمها.

و«رونو» الفرنسية لم تجد سبيلا لتجعل الصينيين يتكلفون لي ألسنتهم لنطق اسمهما بصيغته الباريسية، ونطقهاأقرب إلى «خونو» من "غونو" فجعلت اسم الماركة في الصين «لي نوو».

حتى الماركات من العالم اللغوي الصيني تحتاج لتغير اسمها ليلائم السياق المحلي. «سامسونغ» الكورية أصبحت «سان سون» و«كانون» اليابانية تحولت إلى «جيا نون».

أما تويوتا فقد حافظت على اسمها المكتوب وحولت نطقه للصينية فصار اسمها «فين تيانغ». فكلمة «تويوتا» مكتوبة باليابانية تنطق بالصينية «فين تيانغ»!

ومن باب أولى أن كل منتج جديد يدخل الصين لا بد له من اسم صيني. ولا بد أن يكون

مرفقا ببياناته بالصينية.

وكذلك كل تقنية جديدة وكل مصطلح علمي. وكل دواء وكل آلة. الباب مسدود أمام الكلمات اليونانية والرومانية وليس أمامها إن أرادت النفاذ إلى الصين إلا أن تلبس ثوبا صينيا وتقبل تحريفها بالشكل الكافي لتصبح مقاطع صوتية مقبولة وتحمل نبرات محددة من بين النبرات الصينية الخمس.

هل أدى هذا الانغلاق اللغوي إلى تأخر الصين عن "ركب التقدم" الذي نسمع به في بلداننا المنفتحة لغويا دون أن نراه؟ أبدا. بل إن الماركات الصينية تغزو العالم اليوم، وبأسمائها الصينية الأصلية. وربما نجد الأغاني والمسلسلات الصينية تملأ الشاشات قريبا. فالعالم مولع بتقليد القوي وصاحب الثروة المتغلب.

الفرنسية المتسلقة

فتح كثير من الشركات مكاتب في الصين لإنجاز مشترياتها ومتابعة أعمال الإنتاج ومراقبة الجودة والشحن.

واستفاد عدد كبير من الأجانب من مناخ ازدهار الأعمال والتجارة في الصين بأن استثمروا في بيع خدمات تجارية مختلفة.

أصحاب المكاتب الأجنبية فضلوا اعتماد اللغة الإنجليزية للعمل. وكان ذلك يستدعي تشغيل صينيين يحسنون الإنجليزية إضافة إلى البحث عن صينيين يحسنون لغات الأسواق الوجهة وذلك لتيسير التواصل بغرض التسويق وحل مشاكل الجودة واللوجيستيك وتقديم خدمات تقنية وخدمات ما بعد البيع عموما.

لكن لغة العمل الفعلية في الصين تفرض نفسها وهي دائما الصينية. فالموظفون في التواصل بينهم لا يرتاحون إلا إلى لغتهم الأم. وكذلك هم في تواصلهم مع غيرهم من الصينيين في باقي الشركات والإدارات. وهم يستخدمون برامج المحادثات بكثرة ويكتبون بسرعة برغم أن لغتهم بدون حروف وذلك من خلال أنظمة كتابة استحدثت لحل مشكل الرموز الصينية. ولا تكاد تجد صينيا يستخدم لغة غير الصينية في المحادثات المكتوبة مع صيني آخر.

ويبدو أن الإنجليزية لم تتمكن من فرض اعتبارها علامة رقي اجتماعي على النحو الذي تحظى به في دبي مثلا أو مثل حال الفرنسية في دول المغرب الفرنكفونية.

في الدار البيضاء يعتقد كثير من موظفي الشركات والإدارات أن إلقاء التحية بالصيغة العربية على الهاتف يدل على أن الشخص غير محترف. لذلك يفضلون قول "بونجور" على "السلام عليكم".

كما يفضلون إعطاء الأرقام بالفرنسية ولو لم يكن السياق يستدعي ذلك. ويساعد واقع الفوترة والمحاسبة وإنجاز كاطالوجات السلع والخدمات وأعمال التسويق بالفرنسية على ترسيخ هذه الظاهرة واستمرارها.

ويؤدي اشتراط تحدث المساعدين الصينيين للغات أجنبية إلى الحد من قدرة المكاتب الأجنبية التي تعتمد لغات غير الصينية في العمل على الحصول على الكفاءات. فالحاجة لإتقان لغة أجنبية تحد من مجال الاختيار وتؤدي إلى التفريط في صفات أخرى أكثر أهمية مثل الخبرة والقيادية والقدرة على العمل مع فريق والاستعداد للاستقرار والصبر على التحسن التدريجي في العمل.

اشتراط إجادة لغة أجنبية تحدثا وكتابة يصعد بأسهم أشخاص ربما كانوا سيحلون في مراتب متأخرة لو كانت عناصر التنافس مقتصرة على المعارف التقنية المتعلقة بمجال العمل وعلى القدرات المطلوبة لإنجاز مهمات الوظيفة المترشح لها، وقد لاحظت أن التحول إلى اعتماد الصينية كلغة للعمل في المكاتب الأجنبية في الصين يجعل أداءها أفضل وأسرع وفريق عملها أحسن من حيث المهارات والكفاءات. وعند العمل باللغة الصينية يتم الاكتفاء بشخص أو اثنين للقيام بأعمال الترجمة والتواصل المطلوبة بلغات أجنبية حسب الحاجة. فتوضع اللغات الأجنبية ضمن حدود الحاجة ولا تتجاوزها.

نفس الإشكال مطروح في المغرب. فالشركات التجارية والإدارات تركز على إجادة الفرنسية كشرط للتوظيف. وبسبب ذلك تصعد أسهم أشخاص يحسنون اللغة الفرنسية أو يحسنون التظاهر بإجادتها على حساب أشخاص أكثر كفاءة وقدرة على أداء الوظيفة المطلوبة.

ويؤدي اعتماد الفرنسية لغة لمقابلة التوظيف في الشركات والإدارات إلى محاباة من تربوا في وسط فرنكفوني وإن كانوا "سطولا" على حساب من لا تعد الفرنسية لغته النفسية وربما يكون بينه وبينها حاجز يجعله لا يحسن الرطانة السريعة بها وإن كان يفهم رصيدا مهما منها ويحسن الكتابة به.

ولنتخيل تأثير هذا السلوك في اختيار الموظفين ونوع فرق العمل التي يمكن أن نحصل عليها. ويجب الانتباه إلى أن لعبة إجادة الرطانة بالفرنسية تمكن بعض قليلي الموهبة والقدرات من التسلق في أسلاك الوظائف والقفز من مسؤولية لأخرى دون أن يكونوا ممن يحل المشكلات أو يبدع في إجادة الدور الذي وظف من أجله.

وربما لو تمت دراسة أثر السياسة اللغوية المنحرفة على جودة الموارد البشرية وإدارتها في البلدان التي تتكلف الفرنكفونية لوجدنا عجبا.

اليابانية عندها "بوي فريند"

في نظري كانت عبارة "اللغات الحية" الشائعة في الوسط التعليمي تعني الفرنسية والإنجليزية، وربما الألمانية والإيطالية وحتى الروسية باعتبار الاتحاد السوفياتي كان حيا عندما كنت في مستوى الإعدادي.

لكن حين زرت شرق آسيا تبين لي أن اللغات الحية في عرفنا ليست حية بما يكفي عندهم. فهم يعتمدون في كل شيء على لغتهم الأم.

الأمر ينطبق على هونغ كونغ مع كونها ظلت تحت التاج البريطاني حتى يوليو 1997. وبرغم كون الإنجليزية إحدى اللغتين الرسميتين في الإقليم فلغة العمل والدراسة والإعلام واقعيا هي الصينية.

أما في البر الصيني فقد دهشت حين وجدت الحاجة ماسة لوجود مترجم عند زيارة طبيب متخصص في الأنف والأذن والحنجرة. لم يكن البروفيسور رئيس القسم في مستشفى شين جين الثاني يحسن شيئا من الإنجليزية أو الفرنسية.

كان ذلك شيئا صادما في البداية. ولكن الحصول على وصفات طبية بالصينية وشراء أدوية لا تتوفر معها نشرات بغير الصينية بل ولا تكاد تعرف بغير أسمائها الصينية سيتحول إلى أمر عادي ومقبول.

لاحقا سأدرك أن الأمر ليس خاصا بالصين وحدها.

فقد كنا نستخدم كامرات من إنتاج سوني. واحتجنا بعض التفاصيل التقنية لشرائح تستخدم في كامرات المراقبة. دخلت موقع الشركة وبحثت عن النموذج المطلوب. وحصلت على ملفات تشرح خصائصه. لكني لما حملت ملفات مفصلة وجدتها متوفرة باللغة اليابانية فقط.

البحث والتطوير في اليابان يتم باليابانية، ويا للهول، برغم نظام كتابتها المعقد. وبرغم أنه لا أحد يتحدثها خارج اليابان.

وقد حضرت خلال معرض في تايبيه في تايوان عرضا قدمه واحد من مهندسي سوني حول تقنيات شرائح كامرات المراقبة التي ينتجونها.

كان ظريفا وودودا وكان العرض التقديمي الذي يشرح من خلاله جيدا ومليئا بالمعلومات الثمينة.

ولكنه كان يعاني مع نطق الإنجليزية. ولم يكن يكف عن قول "هي" كل جملتين أو ثلاث. وكان واضحا أن المعلومات التي يقدمها مترجمة عن أصل ياباني.

وخلال لقاء آخر حضر ثلاثة من مهندسي توشيبا على هامش نفس المعرض لشرح خصائص شرائح الكامرات التي تنتجها شركتهم.

وكانوا مثيرين للشفقة بسبب العذاب الذي عانوه للحديث بالإنجليزية. كانوا يتصببون عرقا وهم يتناوبون على تقديم المعلومات ويجبرون حلوقهم وألسنتهم على إنتاج أصوات الإنجليزية الغريبة. ولم ينته العرض حتى رحمتهم وتمنيت لو كانوا نشؤوا في المغرب لكي يتعلموا ترويض ألسنتهم على كل الرطانات اللاتينية والسكسونية وهم بعد رضع.

ذكرني ذلك بسيدة يابانية طلبت مني وشابا أميركيا من نيويورك كان معي في منتصف

التسعينات بالدار البيضاء أن ندلها على مطعم مغربي تقليدي يمكنها أن تتناول فيه طاجينا. وفي الطريق كانت تتحدث مع الشاب الأميركي الأسود بما يمكن أن نطلق عليه تجاوزا إنجليزية. وكان هو يتحدث بلكنة شباب نيويورك السود كما هي عادته. كانت المعاني بينهما تضيع بحيث قال هو: منذ متى حضرت من اليابان؟ فكان جوابها: "عندي بوي فريند." و سار الحديث بينهما على هذا النحو حتى اضطررت للتدخل للترجمة من الإنجليزية إلى الإنجليزية!

تعجبت من حال اليابانيين مع الإنجليزية وهم الذين استسلموا لأميركا بعد الحرب الثانية واعتمدوا على التعاون معها في استئناف نهضتهم العلمية والاقتصادية.

ويبدو واضحا جدا أنهم بعد الحرب واصلوا استخدام اليابانية في كل المجالات وأنهم لم يحلوا مكانها الإنجليزية، لأنهم ربما لم يتوفروا على كفاءات مثل تلك الموجودة في المغرب الكبير.

والظاهر بناء على ما سبق أن الأمم تستطيع تحقيق أقصى درجات السبق العلمي والتطوير والبحث وتستطيع أن تجعل جامعاتها تتبوأ الصدارة عالميا دون أن تتنازل عن استخدام اللغة أو اللغات الوطنية.

وما يحتاج بحثا وإثباتا هو: هل يمكن لأمة أن تحقق نهضة علمية وتفوقا في البحث العلمي ومكانة لجامعاتها بلغة مستعارة؟

الصينية فوق الإنجليزية في لندن!

لا يجوز أن تضع لغة فوق لغتك الأم و لو كانت الإنجليزية و لو في لندن !

التقطت الصورة لواجهة مدرسة أحد صينية في لندن، و هي مثال لتقديم اللغة الأم على غيرها من اللغات في كافة الأحوال و الأماكن.



"الفتنمة" لم تتردد مثل "التعريب"

تمسكت الصين وتايوان وهونغ كونغ وماكاو واليابان وكوريا بأنظمة كتابتها المعتمدة على الرموز وقاومت محاولة استبدالها بنظام الكتابة الروماني.

أما فيتنام فكانت تعتمد على نظام كتابة صيني حتى تمكن الفرنسيون من تعويضه بالحروف اللاتينية، أو "رومنته" كما تسمى هذه العملية لغويا.

هذا نص من بحث يتحدث عن تطور استخدام اللغات الأجنبية في فيتنام، للأستاذ (نغانغ نغوييغ)، منشور في "المجلة الدولية للإنسانيات والعلوم الاجتماعية" عدد دجمبر سنة 2012.

"عندما احتل الفرنسيون فيتنام في منتصف القرن التاسع عشر، وضعوا سياسة لغوية همشت التأثير الصيني. وتم الاعتراف باللغة الفيتنامية، لغة أغلبية السكان من قومية (كيناه) باعتبارها "اللغة الوطنية". لكن، تم في الوقت نفسه إعلان الفرنسية لغة رسمية.

وكان واضحا أن المستعمر أعطى أولوية للفرنسية وركز جهوده على تعليمها. الدراسات العليا تم توفيرها بالفرنسية فقط.

التحدث بالفرنسية، والتفكير بطريقة فرنسية، وتبني نمط الحياة الفرنسي كانت جزءا من خطط الاستعمار الفرنسي.

أصبحت الفرنسية لغة المراسلات الإدارية، والوثائق التجارية، والتعليم الجامعي.

بينما لم يتم إعطاء أي أهمية للغة الفيتنامية بالرغم من أنها كانت تدرس في المستويات الأولى من التعليم.

كانت الفرنسية أداة الحصول على المكانة الاجتماعية وخدمة حكومة المستعمر في الوقت نفسه.

نجاح ثورة 1945 أدى لقيام جمهورية فيتنام الديمقراطية وفتح الباب للفيتنامية لتحصل على مكانة في النظام الجديد.

وكما أشرت سابقا فإن الفيتنامية هي لغة قومية (كيناه) وهم يشكلون 85 % من سكان البلاد

إلى جانب 54 قومية أخرى يتحدثون 108 لغات مختلفة."

تم إعلان الفيتنامية لغة للتعليم وبدأ استخدامها في الحكومة، والمراسلات الإدارية، والوثائق التجارية وغيرها.

وتم كتابة وثيقة استقلال فيتنام بالفيتنامية. واعتمدت الفيتنامية لغة للتعليم في الجامعات التي أسستها الحكومات المحلية.

وبسرعة جرى تهميش الفرنسية والصينية وأصبحت لغات أجنبية لا يتحدثها إلا عدد قليل من السكان."

نجح الفرنسيون في تعويض الحرف الصيني في فيتنام بنظام كتابة لاتيني. ولكنهم لم ينجحوا في إحلال الفرنسية محل الفيتنامية في الإدارة والتدريس برغم أنهم حكموا البلد أكثر من قرن من الزمن.

ويبدو أن الفيتناميين لم يهتموا كثيرا بإنجاز برنامج "فتنمة" متدرج وحذر. وإنما قرروا استخدام لغتهم في الإدارة والتعليم بمجرد الاستقلال. غامروا بمستقبلهم العلمي والتقني والصناعي؟ ربما. وللتأكد يجب أن نقارن جامعاتهم بجامعاتنا التي اكتشفت أن لغتنا الأم ليست صالحة لتدريس العلوم والطب والتكنولوجيا. ثم بعدها نحكم من ربح ومن خسر.

الفلبينية (التاغالو) و الإنجليزية

تنشر في الفلبين عدد من الجرائد اليومية باللغة الإنجليزية. و قد لاحظت لدى وصولنا تركيزها على موضوع التعليم فقد فتحت المدارس أبوابها للتو. و كان الدخول المدرسي في أوجه.

تبدأ السنة الدراسية في الفلبين يوم الاثنين الأول من يونيو و تنتهي يوم 31 مارس. و شهرا أبريل و مايو هما شهرا العطلة "الصيفية". و هذا البرنامج مناسب لمناخ و طبيعة الفلبين كدولة قريبة من خط الاستواء.

نسبة الأمية في الفلبين أقل من 7 في المائة (حوالي 30 في المائة في المغرب). و لهذا أسباب تاريخية. فعندما وصل الإسبان إلى هذه الجزر في القرن السادس عشر فوجئوا بأن نسبة من

يحسنون القراءة في الفلبين أفضل من نسبة القادرين على القراءة في مدريد.

تفاعل الإسبان مع هذا الوضع بسرعة فأسسوا المدارس و الجامعات و أحضروا المطابع فتمت طباعة أول كتاب في الفلبين سنة 1590 و كان بالطبع كتابا دينيا مسيحيا.

حكم الإسبان الفلبين ثلاثة قرون انتشرت خلالها المدارس في كل المدن و القرى. ثم جاء بعدهم الأميركيون الذين احتلوا الفلبين لقرن كامل طبق خلاله النظام التعليمي الأميركي. و حصلت الفلبين على الاستقلال بعد طرد اليابانيين الذين احتلوها بضع سنوات، و ذلك بنهاية الحرب العالمية الثانية.

تعتمد الفلبين في التدريس الثنائية اللغوية. و هو أمر مرسخ بنص الدستور الذي يحدد اللغتين الفلبينية و الإنجليزية كلغتين رسميتين إضافة إلى اللغات الجهوية.

يتم تدريس اللغتين الفلبينية و الإنجليزية في كل المراحل التعليمية. المواد الأدبية تدرس بالفلبينية و المواد التقنية و العلمية تدرس بالإنجليزية. ينص الدستور أيضا على اعتبار خاص للغتين الإسبانية و العربية و يشجع على تعليمهما باعتبار اللغة الإسبانية لغة تراثية للفلبين و باعتبار مكانة اللغة العربية لدى مسلمي البلاد.

في حالة المغرب نجد أن اللغة الفرنسية مستخدمة في التعليم الجامعي بخصوص للمواد العلمية و التقنية و الاقتصاد و تتوفر كخيار لدراسة القانون. بالمقابل لا ينص الدستور المغربي على اللغة الفرنسية كلغة رسمية. و تدرس المواد العلمية في المرحلة قبل الجامعية بالعربية مما يتطلب انتقالا متعسفا من الدراسة بالعربية إلى الفرنسية عند اجتياز التلميذ إلى المرحلة الجامعية.

الحالة الفلبينية مختلفة تماما مع الصين حيث تدرس كل المواد العلمية و في كل المراحل التعليمية باللغة الصينية. و كل الكتب و الوثائق التعليمية الخاصة بها تصدر باللغة الصينية حصريا.

و بسبب ازدهار اللغة الإنجليزية في الفلبين يأتي إليها الآلاف من الطلبة الكوريين لتحسين مستواهم في هذه اللغة.

هل انعكس ازدهار اللغة الأجنبية إيجابا على الاقتصاد الفلبيني؟ تماما كما في المغرب، لا

يعني تبني لغة أوربية تحسن المؤشرات الاقتصادية للدولة. فالفلبين تأتي في المرتبة 130 في ترتيب صندوق النقد الدولي المعتمد على معدل الدخل الفردي. بينما يسبقها المغرب قليلا في المرتبة 122.

لكن الفلبين تتفوق على المغرب كثيرا في مؤشر التعليم حيث جاءت في المرتبة 71 بينما احتل المغرب مرتبة متأخرة كثيرا 155 (معطيات سنة 2007)

كما تتفوق الفلبين على المغرب في مؤشر التنمية البشرية لسنة 2012 حيث جاءت في الرتبة 114 و جاء المغرب في الرتبة 130.

1 يونيو 2014

تركيان

التقيت شابا تركيا في أوسلو فسألته: هل صوت في الانتخابات؟ أجاب نعم. وأضاف مع شيء من التضايق: لا أحب أحدا منهم.

بدا أنه لا يريد الخوض في موضوع السياسة. مع أنه محب للحديث. كان واضحا أنه من 50 في المائة الأخرى التي لم تصوت للعدالة والتنمية.

جاء إلى أوسلو عبر الجو من اسطنبول، وبتأشيرة من اليونان. شرطي الحدود شك في أمره وأحاله إلى غرفة التدقيق. قال له: أعرف شكلك من الناس. أنت مهرب مخدرات. بحثوا متاعه بحثا دقيقا ثم أخلو سبيله ليدخل بعد أن أفزعوه وأتعبوه.

وهو مدخن شره تعجب عندما قلت له إني لا أدخن. أهم ما يعرف عن المغرب هو أنه مكان أجود أنواع الحشيش.

في المساء غادر مع شاب أسود من لندن يظل يستمع لأغاني الراب طوال الوقت وآخر بلغاري جاء لأوسلو بحثا عن عمل. المشترك بينهم هو البحث عن مكان للشرب والسهر.

أياما بعد ذلك التقيت شابا تركيا آخر في كوبنهاجن. هذه المرة من 50 في المائة الأخرى. يعمل مهندس ميكانيكا في مصنع شركة فورد قرب إسطنبول. أب لطفل صغير. قال لي عندما

عرف أن رحلتي تستغرق 6 أسابيع: كيف يمكن أن تبقى كل هذا الوقت بعيدا عن الأسرة؟

فرح بي كثيرا. وصرنا نتبادل التحية كلما التقينا بالعربية. مرة قلت له (ثانك يو) فقال محتجا (وات ثانك يو، ساي شكرا). كان كلما وسعه استخدام كلمات عربية فعل ذلك، مع شعور بالفرح. لا يدرك كثير منا أن العربية لغة قريبة من قلوب أكثر من مليار شخص في العالم لأنها لغة صلاتهم ودعائهم.

أخبرني أنه صوت للعدالة والتنمية وأراد أن يحدثني عن أردوغان مبتدئا بالسؤال: (دويوناو أوردوغان؟)

شرحت له أن أردوغان أكثر رئيس شعبية في العالم العربي. وكيف أن الكثيرين يسهرون الليل في البلدان العربية لمتابعة نتائج الانتخابات المحلية و البرلمانية في تركيا.

سره ذلك كثيرا. لكنه شرح لي كيف أن هناك 50 في المائة لا تحب أردوغان. حسب وجهة نظره، يتكون هؤلاء من أقليات لا تريد أن ترى تركيا تعود للإسلام، ومن أغنياء مستفيدين من طريقة الحكم قبل العدالة والتنمية.

الفرق بين الرجلين عجيب. ولكن أوربا لا تبالي به. فبمجرد أن يكون الشخص تركيا فهو مصدر خطر محتمل.

معرض فرانكفورت للكتاب

أيقظتني تجربة زيارة العالم الصيني من أو هام لغوية عديدة كنت أعيشها.

ثم جاءت زيارة معرض فرانكفورت للكتاب في ألمانيا في أكتوبر 2006 لتفتح عيني أكثر على حقائق العالم اللغوية، البعيدة تماما عن مسلمات مجتمعات المغرب الكبير.

حطت بي الطائرة في مطار فرانكفورت في أول زيارة لأوربا. وهي مكان مناسب لبدء التعرف على القارة التي تشغل مخيلتنا ونحلم بها من الصغر.

كان ذلك أفضل من البدء من فرنسا أو إسبانيا. وكان جيدا أن أبدأ من حدث ثقافي متميز هو معرض الكتاب الدولي السنوي.

التواصل بالإنجليزية أسهل في ألمانيا منه في الصين. حيث نسبة مهمة من الناس تتحدث الإنجليزية. ولكن سيادة الألمانية واضحة ولا تمس. فهي اللغة الأولى للإشارات والمطبوعات والتواصل والإعلام والتعليم. وهم لا يستخدمون الإنجليزية إلا عند الحاجة لها.

كان من الواضح أن تحدث الإنجليزية لا يرتبط بوضع اجتماعي أرقى من الحديث بالألمانية.

لقد هزموا في الحرب الثانية شر هزيمة. ولكن يبدو أنها هزيمة لم تتسرب للجانب اللغوي كما حصل معنا.

كان هدفي من زيارة معرض الكتاب الاطلاع على حالة صناعة النشر في العالم. فقد كنت أدير مكتبة تجارية في مدينة العيون بالصحراء وكنت أطمح لتطوير المشروع ليصبح دار نشر ولتكون له فروع في مدن أخرى.

كنت اشتغلت عن طريق المكتبة وبالتعاون مع جمعيات في أنشطة لتشجيع القراءة. وعلى الخصوص كانت تجربة معارض الكتاب السنوية التي نظمتها جمعية نادي الشروق خلال رمضان أواخر التسعينات تجربة مهمة للغاية.

شاركت في تنظيم عدد من تلك المعارض من خلال تنسيق اختيار وإحضار الكتب بالتعاون مع دور نشر وتوزيع في الدار البيضاء.

كان المعرض ينظم في قاعات دار الشباب في شارع السمارة. وكان الفريق المشرف عليه متطوعا. والغرض الأساسي منه تقريب الكتاب من الناس وحثهم على القراءة.

نظمت مكتبة الإرشاد ومكتبات أخرى في العيون معارض في المدارس الثانوية وتحسن انتشار الكتاب ومستوى المكتبات التجارية كثيرا في المدينة.

كنت أقرأ عن تجارب البلدان الأخرى في تشجيع القراءة وكان الفجوة بيننا وبينهم تظهر لي كبيرة. ولكن زيارة معرض فرانكفورت ستبين لي أنها فجوة أكبر كثيرا مما تصورت.

زرت المعرض لآخذ منه أفكارا محفزة للعمل لخدمة صناعة القراءة في المغرب، وخرجت

منه محبطا ومقتنعا أن سياسات نشر القراءة وخدمة الكتاب أكبر من المبادرات الشخصية ومن عمل الجمعيات. إنها عمل مجتمع، وجزء كبير منه يقع على عاتق الدولة.

صادفت تنظيم إدارة المعرض لدورة تكوينية لفائدة الناشرين العرب فشاركت فيها. حصلنا على شروح قدمها مختصون في توزيع الكتب وفي النشر وإدارة المكتبات التجارية.

التجربة الألمانية تسبب الصدمة عند مقارنتها بالحالة في البلدان العربية.

مسؤول كبرى شركات التوزيع شرح لنا كيف تسير مخازن الكتب بطريقة آلية يتم فيها جمع طلبات المكتبات اليومية من الكتب بواسطة روبوتات تضع الكتب المطلوبة في أوعية بلاستيكية تتجمع عند السيارة التي ستنقل الطلبات إلى المدينة أو الحي المعني.

يتم جمع الطلبات آليا بشكل تام. وباعتماد رموز الأعمدة والترقيم المعلوماتي على رفوف شاهقة الطول. تتنقل الأوعية عبر سكك وتوضع فيها الكتب بوساطة أذرع روبوتية.

عند نهاية جمع الطلب يختم عليه بغطاء بلاستيكي يحمل عنوان المكتبة الموجه إليها الطلب.

شركة اللوجيستيك مملوكة لشركة التوزيع. وشاحناتها الكثيرة تنطلق فجرا لتوزيع الطلبيات. وسائقو الشاحنات يملكون نسخا من مفاتيح المكتبات فيفتح السائق الباب ويدخل الطلب ويغلقه من جديد، إذا حضر قبل وقت فتح المكتبة.

النشر في ألمانيا نشط جدا. ويعد صناعة مربحة. ومعظم محتوى المكتبات باللغة الألمانية. فبرغم أنها لغة لها عدد محدود من المتكلمين فإن حركة الترجمة والنشر جعلتها واحدة من أكثر اللغات في العالم استيعابا للكتب الأجنبية عن طريق ترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغة الألمانية.

كان محدثونا الألمان يتحدثون باستمتاع عن عملهم في صناعة الكتاب وكانوا فخورين بما أنجزوه في هذا المجال. بينما كان الناشرون العرب الحاضرون متذمرين كالعادة وكثيري الشكوى من حال صناعة النشر العربية. معظمهم يقضون وقتهم في توسل زبناءهم لأداء ما عليهم من ديون. وبعضهم لا يجد حرجا في القول بأنه لا يجد وقتا للقراءة! تماما كما لو أن رياضيا محترفا يقول إنه لا يجد وقتا للتدريب! يا ناشر الكتب، إذا لم تكن تقرأ فكيف تدعي أنك ناشر؟

الانتماء اللغوي أولا

نزلت في فندق وسط فرانكفورت في الليلة السابقة للمعرض بسعر 35 يورو. في اليوم الموالي كان السعر أربعة أضعاف بسبب كثرة إقبال الناس على المعرض فاستعنت بخدمة توفرها إدارة المعرض على موقعها لتدبير مبيت لدى أسر تكري غرفا من منازلها للزوار.

حصلت على غرفة عند أسرة في ضاحية المدينة، قريبة من إحدى محطات القطار.

حجم الإقبال على المعرض مدهش. وذلك رغم أنه مخصص للمحترفين، ولا تفتح الفرصة للعامة بمن فيهم الطلبة لزيارته إلا في اليوم أو اليومين الأخيرين.

يزور المعرض مؤلفون ورسامون وناشرون ومترجمون وموزعون ومشتغلون في الطباعة والمكتبات العامة وبائعو كتب وصحافة من كل العالم.

كانت الهند ضيف الشرف لسنة 2006. وكان حضورها قويا أضفى على المعرض رونقا هنديا.

لاحظت بالونات كبيرة في ساحة المعرض تحمل حروفا من الخطوط المستخدمة في الهند. وكان فيها حروف عربية. فالخط العربي من بين الخطوط المستخدمة في بعض ولايات الهند. وهو مستخدم لكتابة لغات في إفريقيا والجزيرة العربية والسند والهند وفارس والصين.

الخط العربي الجميل الذي تفننت شعوب العالم المستخدمة له في إبرازه والاحتفال به بكل طريقة ممكنة. في المعمار والمخطوطات واللافتات والنقوش.

بينما تجد في شمال إفريقيا من يتبرأ منه ويستبعده خوفا من أن ينتقص من "فخامة" المكان و"جودة" المنتجات ولكي لا يشوش على حضور الحرف اللاتيني!

خلال الجولة في قاعات المعرض سأجد أن العالم مقسم لغويا. وأن هذا التقسيم يتحدى "السيادة الوطنية" ويتجاوزها.

ففي قاعة اللغة الإنجليزية يوجد جناح كندا الإنجليزية. بينما جناح كيبيك الفرنسي يوجد في قاعة اللغة الفرنسية.

وبلجيكا مقسمة بين الوالون الذين جعلوا جناحهم في القاعة الفرنسية والفلامانيين الذين انحازوا إلى هولندا قريبا من القاعات الألمانية.

توقفت بشكل خاص عند الحالتين البلجيكية والكندية. كيف تغلب الانتماء اللغوي على ضرورات الوحدة الوطنية؟ أم أنه ليس في الأمر تناقض أصلا؟

بلجيكا دولة فدرالية مقسمة حسب خطوط اللغة. ففيها إقليم الفلاميين الناطق باللغة الهولندية، وإقليم والونيا الفرنسي، وإقليم ألماني صغير به 77 ألف من السكان. والعاصمة ثنائية اللغة والتي يتبع سكانها أحد الإقليمين الفلامي أو الوالوني حسب اللغة.

لكل إقليم برلمان وحكومة ونظام خاص. وللعاصمة بروكسيل برلمان وحكومة. وفوق ذلك حكومة فدرالية. الحكومات المحلية تشتغل بلغاتها دون اعتماد اللغات الأخرى ولو على سبيل المجاملة.

موقع برلمان كل من الوالون والفلاميين متوفر باللغة الفرنسية أو الهولندية فقط. هم عمليون للغاية دون أن يجرؤ أحد منا على تسمية ذلك بأنه تعصب زائد و"انغلاق قروسطي[8]."

كنت أتسلى بأن أسأل جناح الكيبيك إن كانت لديهم كتب بالإنجليزية وجناح كندا الإنجليزية إن كانت لديهم كتب بالفرنسية. وعلى نحو أكثر جدية كنت أسأل عن تجاربهم فإذا هم مقتنعون بأن الهوية اللغوية ليست موضوع مفاصلة أو تنازلات.

كان هناك جناح لكاطالونيا وغاليسيا والباسك. وفي كل جناح كتب بلغته. وقد سألت بعض القائمين على تلك الأجنحة عن جدوى النشر تجاريا بلغات لا يتحدثها إلا عدد قليل من الأشخاص فشرحوا أن النشر عندهم يعتمد على دعم الحكومات المحلية بالدرجة الأولى.

كانت معظم الأجنحة تحتوي كتبا بلغات بلدانها. وكان النقاش والتداول بين محترفي النشر يدور حول صفقات الترجمة وحقوق النشر.

الحضور المغربي كان لدور نشر صغيرة أغلب منشوراتها بالفرنسية. وهي حضرت

8 . "قروسطي" تعبير شائع في الأوساط "المثقفة" بمعنى "ينتمي للقرون الوسطى"

ضمن دور نشر من بلدان يصفها المعرض بأن "صناعة الكتاب فيها غير مهيكلة" ولذلك يستضيفها المعرض على حسابه.

كانت عبارة "صناعة كتاب غير مهيكلة" تختصر الكثير. عندنا وزارة ثقافة لها ميزانية ومندوبيات وعندنا دور نشر شامخة بأنوفها للسماء وننظم معرضا للكتاب كل سنة في الدار البيضاء ومع ذلك تبقى صناعة الكتاب عندنا غير مهيكلة. وستظل كذلك ما دام هذا قرار الدولة المركزية وقرار الحكم المحلي. حيث يتراجع الكتاب والترجمة والنشر والمكتبات العامة إلى ذيل الاهتمامات مقابل إحياء مهرجانات موسيقية و"فنية" من كل نوع. وهي مهرجانات ترفيهية لا تجرؤ الدول الديمقراطية على أن تنوب فيها عن محترفي صناعة الترفيه. فهم ليسوا في حاجة للدعم من المال العام.

الألمانية بنت الإنجيل

لاحظت أن بعض الألمان ينتقلون إلى الحديث بالألمانية بعد أن يكونوا بدؤوا معك بالإنجليزية دون أن ينتبهوا لذلك. وهذا ما يمكن أن نسميه "اللغة الأم."

بعد التنبيه يعود مخاطبك للإنجليزية. واللغتان الألمانية والإنجليزية من اللغات الجرمانية. ولذلك لا يصعب على الألماني تعلم الإنجليزية وإتقانها بفضل تقارب اللغتين في الرصيد اللغوي والبنية والأصوات المستخدمة.

ظلت الألمانية لهجات عديدة لا يفهم بعضها بعضا حتى نشر (مارتن لوثر)، قائد حركة الاحتجاج ضد انحرافات الكنيسة الكاثوليكية، ترجمة للإنجيل والتوراة إلى الألمانية سنة 1522.

كان مارتن لوثر قد نشر بحثا ضمنه قريبا من ستين ملاحظة على ممارسات البابا والكنيسة الكاثوليكية. وكان بيع صكوك الغفران، المنتشر في زمنه على نطاق واسع، أهم ما اعتبره مارتن فسادا بينا وانحرافا عن تعاليم الإنجيل.

انتقد مارتن الرهبنة ووساطة الكهنة بين الناس وربهم. وقال بأن المغفرة ودخول الجنة تعتمد على رحمة الله ولا يمكن أن تجلب بعمل الخير وحده.

ولاقت دعوة لوثر تجاوبا واسعا، وتسببت في حروب كثيرة بسبب القمع الشديد الذي تعرضت له الحركات المحتجة من طرف مؤسسات الكنيسة والملوك التابعين لها.

طالب البابا مارتن لوثر بالتخلي عن أفكاره فلما رفض حكمت عليه الكنيسة بالإبعاد والحرمان الكنسي (صيغة التكفير النصرانية.) حدد مارتن عددا من فصول الإنجيل باعتبارها مشكوكا فيها أو ضعيفة. وسُجِل عليه أنه تصرف أحيانا في النص الأصلي وفق ما تقتضيه "ضرورة وضوح المعنى".

انتشرت نسخة مارتن لوثر، ومراجعاتها اللاحقة، بين الألمان وتحولت اللغة التي استخدمها بالتدريج إلى "ألمانية فصحى" مقابل لهجات محلية كثيرة. وبشيوع التعليم واستخدامه للألمانية الفصحى تحول معظم سكان ألمانيا الحالية عن لهجاتهم إلى الحديث بالألمانية الفصحى.

وبالمقابل ظلت مناطق عديدة متحدثة بالألمانية تعرف ثنائية لغوية فهناك اللغة الألمانية الفصحى المستخدمة في الكتابة والتدريس وهناك اللهجات المحلية. وهذه الظاهرة موجودة في سويسرا والنمسا وبعض ولايات ألمانيا نفسها.

لا يمكن للألماني فهم اللهجة الألمانية السويسرية. وفي الإعلام يتم استخدام الترجمة الصوتية أو المكتوبة. ولأن السويسريين يتعلمون الألمانية الفصحى نطقا وكتابة من سن السادسة فهم عادة يتحولون للحديث بها إذا كان من بين الحضور شخص لا يتكلم اللهجة السويسرية.

وتستخدم اللهجة السويسرية في المحادثة الشفوية في كل المجالات. ويمكن أن يستعين بها الأستاذ في شرح الدروس. ولكن الكتابة محجوزة بشكل كامل تقريبا للألمانية الفصحى.

ويمكن اعتبار الثنائية اللغوية في الألمانية السويسرية أشد من الثنائية الموجودة في بعض الدول العربية حيث يسهل على معظم العرب تعلم لهجات بعضهم وفهمها دون الحاجة لتعلمها بشكل نظامي. وهو أمر يظهر أثره في ندرة حاجة وسائل الإعلام العربية إلى إدراج نص مكتوب يوضح حديث عربي يتكلم بلهجته المحلية.

وربما يكون علينا أن نرسل إلى سويسرا الألمانية السيد نور الدين عيوش لإقناعهم بالتخلي عن الألمانية الفصحى لفائدة اللهجة السويسرية. الفكرة ربما تساعد في تحسين مستوى التعليم في

سويسرا ليكون قريبا من مستواه في بلد اللغات الحية: المغرب.

دروس لسانية في القطار

دروس السلوك اللغوي الوطني منتشرة في كل شيء في أوربا.

يحتاج الأمر قليلا من الانتباه من الزوار ومن جاليتنا هناك ليفيدونا بالكثير. وقد تلقيت دروسا بليغة خلال رحلتين بالقطار بين باريس وفرانكفورت، ثم برلين إلى وارسو عاصمة بولونيا.

في بلداننا نأخذ توفير المعلومات في وسائل النقل العامة بلغتين باعتباره شيئا مسلما به. ولا نبالي بترتيب اللغات. ولا نعتبر إهمال اللغات الوطنية مقابل لغات "السياح" أمرا غريبا.

في البلدان الأوربية يحسبون الأمر بدقة ولا يتركون مجالا للصدفة.

في القطار السريع من باريس إلى فرانكفورت كانت الرسائل الصوتية التي تخبر الركاب بمعلومات الرحلة والخدمات والمحطات المقبلة تقدم بالفرنسية أولا ثم الألمانية ثانيا من باريس حتى حدود ألمانيا.

وبمجرد اجتياز القطار خط الحدود المفتوح، وهو لم يتوقف عنده على ما أذكر انقلب ترتيب لغة الرسائل. فأصبحت الألمانية تسبق الفرنسية برغم أن نفس الشخص ظل يبثها باللغتين طوال رحلة الساعات الخمس.

ما هذا الانتباه المهووس عند هؤلاء الأوربيين المتحدين للتفاصيل؟ ما أهمية ترتيب اللغات؟ فيما يخصنا في بلاد المغرب الكبير لا أهمية للأمر. هل نحن على صواب؟ علينا البحث!

بعد نهاية معرض الكتاب سافرت من فرنكفورت إلى لايبزيج ثم منها إلى برلين. وبعدها بأيام كنت على رصيف محطة برلين أنتظر موعد القطار إلى وارسو. حل وقت الرحلة ولم يظهر القطار ولولا وجود سيدة ألمانية مسافرة على نفس القطار نبهتني إلى أن رسالة صوتية تقول إن الرحلة ستنطلق بعد مدة قصيرة من محطة أخرى لفَوَّتُ الرحلة. تم بث الرسالة بالألمانية فقط.

في القطار من برلين إلى وارسو كان السلوك اللغوي أكثر عملية. لغة الرسائل الصوتية

كانت الألمانية وحدها حتى حدود بولونيا ثم تحولت إلى البولونية وحدها من الحدود إلى وارسو. وبخصوص لي فكلاهما رطانة غير مفهومة.

سألت ركابا عن هذه المسألة فقالوا إنها شيء اعتيادي ألفوه. على الألماني أن يتحمل في بلاد البولونيين كما أن على البولوني أن يتحمل في بلاد الألمان. السيادة للغة الأرض.

نعرف عن أوربا الحدود المفتوحة والاتحاد والتعاون ولكن لا ندرك أن كل ذلك يتم في إطار تشدد في حماية الهوية والرموز الثقافية لكل بلد وإقليم. وهو تشدد يصل في رأيي حد التعصب.

وفي الغالب فإن السلوك اللغوي في الخدمات العامة ولوحات الإرشاد في الشوارع والمطبوعات الموجهة للجمهور والمعلومات على المنتجات ولافتات المحلات ولغة وسائل الإعلام ولغة التعليم العام والخاص ليست متروكة للصدفة. فهي من المجالات التي يتدخل فيها التشريع، وبطريقة مفصلة لحماية المستهلك والتلميذ والمواطن ولحماية الهوية المحلية من أي تهديد لها أو استهانة بها.

نفس الشيء يلاحظ في سلوك طاقم الطائرات. فلغة بلد الانطلاق وبلد الوجهة حاضرة دائما في توجيهات الأمان وتواصل المضيفين مع الركاب.

والاستثناء الذي رأيته يوجد عند طواقم الطائرات المغاربية الذين يرى كثير منهم أن الفرنسية هي لغة الأجواء وهي المناسبة لعالم الطيران الراقي بعيدا عن عربية البدو. فتجد المضيفة تسألك "تي فوبواغ كيلك شوز؟[9]" وأجيب عادة "مَ" كما نسمي الماء في لهجتنا الحسانية. فتسأل المضيفة "دولو؟[10]"

بالله عليكم أيهما أو ضح "مَ" أو "دُولو"؟

---

[9] "تي فوبواغ كيلك شوز؟" تعني بالفرنسية "هل تريد شرب شيء؟"

[10] "دولو؟" تعني بالفرنسية "ماء؟"

بلاد الكتب

هل لاحظت أن كل الكتب تحمل على ظهرها رقما يبدأ بـ 978؟ إنه الرقم التسلسلي الدولي للكتاب ويوجد تحت رمز أعمدة ويتكون من 13 عددا.

وقد انتشر نظام الترقيم الأوربي EAN13 حتى صار الأكثر استخداما في العالم. وهو يسهل مناولة وتسجيل المنتجات وتتبع حركتها ومصدرها باعتماد قارئ رموز الأعمدة.

العددان أو الثلاثة الأولى في ترقيم كافة المنتجات غير الكتب تدل على بلد المنتج. مثلا من 690 إلى 695 خاصة بالمنتجات الصينية. ومن 00 إلى 13 خاصة بالولايات المتحدة. ومن 30 إلى 37 محجوزة لفرنسا. رقم منتجات المغرب هو611.

الأعداد العشرة الأخرى مخصصة لرقم المصنع ورقم المنتج ورقم تحقق يحسب بطريقة آلية للحد من الخطأ عند إدخال الأرقام بطريقة يدوية.

تشكل الكتب استثناء فيما يخص رقم البلد. فهي لا تحمل أرقام بلدان نشرها وإنما تحمل رقم 978 الذي أطلق عليه اسم (بلاد الكتب).

والسبب في هذا الأمر هو أن صناعة الكتب كانت سباقة لوضع نظام ترقيم خاص بها. وهوISBN الرقم التسلسلي الدولي للكتاب. وتشرف على تنظيمه دوليا وكالة الترقيم الدولي للكتاب.

ومعيار الترقيم الدولي للكتاب من المعايير التي تنشرها المنظمة الدولية للمعايير ISO.

والتقسيم الرئيسي لنظام ترقيم الكتب يعتمد على المناطق اللغوية. خصص الرقمان 0 و1 للإنجليزية، فصارت كل الكتب المنشورة بالإنجليزية تبدأ بأحد هذين الرقمين مباشرة بعد رقم 978.

وأخذت الفرنسية رقم 2 فهو يستخدم في فرنسا والقسم الفرنسي من بلجيكا وفي كيبيك بكندا والكانتونات الفرنسية من سويسرا.

الألمانية أخذت الرقم 3 وهي مستخدمة في البلدان والأقاليم الناطقة بالألمانية. واليابانية رقم 4 والروسية رقم 5. والظاهر أن الإسبانية لم توحد ترقيمها فأخذ كل بلد متكلم بالإسبانية رقما

خاصا به. وكذلك الحال مع العديد من المناطق اللغوية الأخرى التي لم تنسق فيما بينها أو تأخرت في اعتماد نظام ترقيم الكتاب الدولي.

ويلاحظ أن صناعة الكتاب في دول الغرب مرتبطة بالمناطق اللغوية. فالمكتبات والنشر في إقليم الفلاندرز ببلجيكا مرتبطة بهولندا المجاورة والتي تتحدث نفس اللغة. بينما ترتبط المكتبات وصناعة الكتاب في إقليم والونيا بفرنسا. ولكل من الإقليمين البلجيكيين منظماته وجمعياته الخاصة به في مجال مهنة الكتاب.

وكذلك الحال في كندا. فصناعة الكتاب في كيبيك تتعاون مع السوق الفرنسي بينما ترتبط صناعة الكتاب في الأقاليم الناطقة بالإنجليزية بالولايات المتحدة.

تميز الكتاب بنظام ترقيم خاص به يدل على أنه منتج عابر للحدود. وخصوصا أنه معفى من الجمارك ومن الضريبة على القيمة المضافة في كثير من البلدان، بما فيها العربية. وهذا يسمح لتجارة الكتب بأن تعمل بقيود قليلة ولأسعار الكتب بأن تظل في المتناول.

وفي المغرب مثلا يدفع على استيراد حاوية كتب ضريبة بسيطة لا تتجاوز بضع مئات من الدراهم. ولا تزيد الإجراءات على التصريح بالكميات والعناوين وتسجيلها لدى وزارة الاتصال.

ولذلك تجد الكتب في المغرب منخفضة الثمن وخاصة كتب التراث العربي. فمجلد بطباعة جيدة لا يتجاوز 50 درهما. وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بمجلداته السبعة والعشرين قد لا يصل سعره إلى ألف درهم.

ومع ذلك تشتكي المكتبات من قلة إقبال القراء وضعف مبيعات الكتب. وهو مظهر من مظاهر ضعف المجتمع والدولة. ومن الصعب الحسم أيهما يجب أن يسبق الآخر قوة المجتمع والدولة أو ازدهار القراءة.

الدولة الأولى في العالم في الإنفاق على الكتب والمكتبات العامة والنشر وازدهار صناعة الكتاب في العالم هي الولايات المتحدة. وهي أيضا الأولى في الاقتصاد والقوة العسكرية. وتليها في الترتيب الدول الموالية في سلم الثروة.

ويلاحظ أن صناعة الكتاب وانتشاره في نمو مطرد في الصين حيث يتم نشر الكتب بملايين

النسخ وتتم ترجمة الكتب الغربية بسرعة كبيرة، سواء بترجمات مرخصة أو مقرصنة.

وحيث إننا نجد صعوبة كبيرة في توفير شرط قوة المجتمع والدولة اللازم لازدهار القراءة، فلم لا نعمل من أجل ازدهار القراءة لعله يؤدي لقوة المجتمع والدولة؟

حكم ذاتي لغوي

بلجيكا فدرالية لغوية فريدة من نوعها. فأقاليمها الثلاثة ومنطقة العاصمة تقوم على أساس لغوي.

منطقة الفلاندرز في الشمال يسكنها قريب من 60 في المائة من السكان لغتها هي الهولندية.

ومنطقة الوالون جنوبا يسكنها حوالي 40 في المائة من السكان ولغتها الفرنسية. وبمحاذاة ألمانيا بلديات صغيرة يسكنها 77000 مواطن تشكل إقليما لغته الرسمية هي الألمانية.

وتعتمد منطقة بروكسيل العاصمة اللغتين الفرنسية والهولندية معا لغتين رسميتين. وينتمي سكان العاصمة بحسب لغتهم إلى أحد المجتمعين الفلامي أو الوالوني.

وهو ترتيب عجيب تم الوصول إليه لحل مشكل تعصب كل قومية للغتها ورفضها التام القبول بأن تعلو عليها لغة أخرى.

لم يأت هذا الحل مرة واحدة وإنما جاء بعد مشاكل صراع لغوي طويلة. فقد كان من أسباب ثورة البلجيكيين على الحكم الهولندي سنة 1830 أن الملك الهولندي حاول فرض اللغة الهولندية في كل المعاملات الإدارية. وهي سياسة ساهمت إضافة إلى اختلاف المذهب الديني بين الأقاليم البلجيكية الكاثوليكية مع باقي أقاليم هولندا البروتستانتية، في تعميق الهوة بين الوالونيين والفلاميين.

وكان أسقف بلجيكا أفتى بحرمة العمل في الإدارة الهولندية مما عطل مصالح المجتمع البلجيكي وجعله جاهزا لثورة 1830 التي انتهت باستقلال بلجيكا وتتويج ليوبولد الأول ملكا عليها.

بعد الاستقلال أصبح للفرنسية وضع رسمي مميز. وتصاعدت الاحتجاجات من السكان

الناطقين بالهولندية ضد هذا التمييز. فصدرت بالتدريج قوانين تحسن وضع اللغة الهولندية في الإدارة والتعليم والحكم المحلي.

سنة 1898 تم اعتماد قانون المساواة اللغوية لتصبح الهولندية والفرنسية لغتين رسميتن متساويتين نظريا على الأقل. فقد كان الناطقون بالفرنسية يرفضون تعلم الهولندية، بينما كان أغلب السياسيين والنخبة الفلامية حينها تتحدث الفرنسية.

واستمر النقاش حول المسألة اللغوية حتى 1921 حين خشي الإداريون الوالونيون الفرنكفونيون أن يفرض عليهم تعلم اللغة الهولندية أو يصبح اجتياز اختبارات فيها ضروريا للوظيفة الحكومية فاقترحوا فصل السياسة اللغوية في الإقليمين بحيث يكون لكل منهما أن يشرع ويصدر وثائقه الإدارية ويتواصل مع الجمهور بلغته، دون استخدام لغة الإقليم الآخر.

وقد طرح تساؤل هل يتم اعتماد أحد هذين المبدأين:

- مبدأ شخصية المواطن، بحيث يكون للمواطن الحق في مخاطبة الإدارة والحصول على الخدمات باللغة التي يختارها،

- مبدأ الإقليمية فتكون اللغة المستخدمة هي لغة الإقليم الرسمية بغض النظر عن لغة المتعامل معها.

وتم ترجيح مبدأ الإقليمية. وتقرر أن يتم تحديد الإقليمين بناء على لغة أغلبية سكان البلديات. وأن يتم إجراء إحصاء لغوي كل عشر سنوات ليستمر احترام مبدأ لغة الأغلبية.

وسنة 1970 تم اعتماد التقسيم اللغوي لبلجيكا في الدستور حيث ينص الفصل الرابع على المناطق اللغوية الأربع في البلاد.

ولكل واحدة من المناطق اللغوية برلمانها وحكومتها. وكل واحدة من فلاندرز و والونيا والمنطقة الألمانية تستخدم لغتها في الإدارة والتعليم والتواصل مع الجمهور.

ويبدو التعصب اللغوي واضحا في سلوك الفلاندرز والوالون. وقد اضطرت كل المؤسسات لمجاراته.

ومثال رحلة القطار من أنتويرب إلى شارلوروا يقدم فكرة عن هذا الإشكال. فالرسائل الصوتية تبدأ باللغة الهولندية من أنتويرب حتى بروكسيل. وفي العاصمة تصبح الرسائل الهولندية والفرنسية ثم تعود للهولندية قبل أن تنتقل للفرنسية عند دخول إقليم والونيا.

وهذا يستدعي من ركاب القطار أن يكونوا على معرفة باسم المحطات باللغتين، فالأسماء تختلف اختلافا بينا أحيانا. ومثال ذلك اسم مدينة (أنتويرب) بالهولندية (أنتفيربين) الذي يصبح بالفرنسية (أونفير)

ومن مظاهر التعصب اللغوي الواضحة سلوك برلمان الفلاندرز. فهو يوفر موقعه على الإنترنت ويتم التواصل داخله بلغة الإقليم فقط. يمكن لفرنسي أن يستفيد من محتوى موقع البرلمان المغربي مثلا من خلال نسخته الفرنسية ولكن لا يمكنه الاستفادة من محتوى موقع برلمان إقليم الفلاندرز إلا بترجمة محتواه. علما أن البرلمان المذكور يوفر محتوى عاما حول عمله وطريقة زيارته بالإنجليزية!

ونجد موقع حكومة والونيا على الإنترنت متوفرا بالفرنسية فقط. وليست له نسخة باللغة الفلامية.

توفر الحكومة الفدرالية وفروعها المعلومات والتواصل بالهولندية والفرنسية والألمانية.

ويحسن ملك البلجيكيين اللغتين الفرنسية والهولندية ويلقي الخطابات الموجهة للأمة بهما معا.

خلاصة التجربة البلجيكية هي أن الفرنسية اكتفت بوضع دفاعي وتركت الهجومية التي تطبعها في صولاتها الإفريقية.

كل أمة تقرأ "ويكيبيدياءها"

يتصفح المغاربة و الجزائريون و الموريتانيون النسخة العربية بنسبة أكبر من النسخة الفرنسية في ويكيبيديا بفارق بين 10 و 5 نقاط مئوية. بينما تتفوق النسخة الفرنسية في تونس بفارق كبير. أما الليبيون فيتصفحون النسخة العربية بنسبة ثلثي تصفحهم للموسوعة العالمية بشكل

عام. و تأتي الإنجليزية عندهم في المرتبة الثانية.

هذا الرابط يقدم إحصائيات نسب تصفح ويكيبيديا حسب اللغة في كل بلد. و يظهر شساعة الفرق بحسب اهتمام كل بلد بلغته الأم و دعمه لها[11].

لاحظ التفوق الواضح للعبرية في إسرائيل. أما أفضل نموذج لتفوق اللغة الأم خارج العالم الإنجليزي و الإسباني فهو اليابان حيث يتصفح اليابانيون النسخة اليابانية بنسبة 94 في المائة من استخدامهم العام للموسوعة.

في أغلب العالم الإنجليزي و الإسباني، نسخ اللغات الأجنبية من ويكيبيديا في حالة من الضياع.

في فرنسا يبدو أن النسخة الإنجليزية حققت اختراقا لا بأس به.

الحالة الألمانية

كنت كلما مررت بمبنى مثير للاهتمام أو بنصب تذكاري في شوارع فيينا خلال زيارتها الشهر الماضي أبحث على ويكيبيديا للحصول على معلومات و معرفة إن كان المكان يستحق تخصيصه بزيارة.

و قد لاحظت أن المعلومات حول المعالم و الآثار و التاريخ النمساوي تتوفر باللغة الألمانية بدرجة أكبر بكثير مما تتوفر بالإنجليزية أو الفرنسية. بل ربما لا تتوفر المادة المتعلقة بالموضوع المطلوب على نسخ ويكيبيديا الإنجليزية و الفرنسية و تجدها على النسخة الألمانية.

و بفضل ترجمة غووغل تمكن الاستفادة من المواد الألمانية مع الانتباه إلى ثغرات و عيوب الترجمة الآلية.

الظاهر أن مساهمات الشعوب الناطقة بالألمانية في ويكيبيديا هي في أساسها بلغتهم الأم. و

[11] https://stats.wikimedia.org/wikimedia/squids/SquidReportPageViewsPerCountryBreakdown.htm .

كذلك تصفحهم و قراءتهم في هذه الموسوعة التي تعد أحد أهم مواقع الشبكة المعلوماتية في العالم.

و حسب الموسوعة نفسها فالنمساويون و المقيمون بالنمسا عموما يستخدمون النسخة الألمانية بنسبة 78.8 في المائة.

و هي نسبة تزيد 4 نقاط على نسبة استخدام النسخة الألمانية في ألمانيا نفسها حيث يراجع الألمان ويكيبيديا الألمانية بنسبة 74.1 في المائة من إجمالي تصفح الموسوعة من الأراضي الألمانية.

و تتفوق ليختينشتاين الصغيرة في الحدود بين سويسرا و النمسا في اقتصار أهلها على نسخة ويكيبيديا بلغتهم الأم (الألمانية) حيث تقترب نسبة استخدامها من 80 في المائة من إجمالي الاستخدام.

و نصف استخدام الموسوعة في سويسرا بالألمانية و هذا قريب من نسبة من يتكلمون الألمانية في البلاد (68 في المائة).

و يمكن اعتبار هذه الأرقام مؤشرا على السلوك اللغوي للشعوب الناطقة بالألمانية. فقراءتها و كتابتها تكون بالألمانية أساسا. مع ملاحظة كثرة من يتحدثون الإنجليزية بين الناطقين بالألمانية و سهولة تعلم الإنجليزية عليهم.

اليونان والسعودية

عدت لمعرض فرانكفورت في أكتوبر سنة 2015 بعد زيارة أولى سنة 2006. المعرض أقل حجما ولكنه ما يزال أحد أكبر معارض الكتاب. معظم من رأيتهم في الفندق حيث أقمت أشخاص حضروا لزيارة المعرض. فكانت فرصة للتذاكر حول قضايا النشر والكتاب والاطلاع على الفرق بين سياسات الدول المحكومة من شعوبها مع سياسات دولنا المحكومة من أشخاص يعتبرون أنفسهم مجموعة الأذكياء الوحيدة في البلد.

لاحظت أنه بقدر درجة الاستبداد في بلد يهبط مستوى مشاركته وجودة حضوره. حتى ولو أنفق أموالا كبيرة على جناحه.

وكان جناحا السعودية واليونان المتجاورين أحسن مثال على ذلك.

كان الجناح اليوناني مليئا من الكتب باللغة اليونانية في مواضيع مختلفة ولأعمار مختلفة. وكان مليئا من الزوار. وقد شهد إقبالا خاصا في يومي فتح المعرض للعموم. حيث امتلأ بأسر تتفحص الكتب المعروضة وتحادث أطفالها عن محتواها.

المكلفون بالجناح اليوناني منتبهون ونشطون لمهمتهم في استقبال الزوار والحديث معهم. ولا شك أن المعرض كان يعني لهم فرصة لإنجاز اتفاقات ترجمة وبيع حقوق وشرائها فهذا هو الهدف الأول من مشاركة الناشرين والموزعين في المعرض.

في الجانب الآخر كان الجناح السعودي فخما من حيث الديكور والألوان الزاهية والإضاءة الجيدة.

ولكن محتواه من الكتب كان بسيطا جدا. وأغلبه كان من منشورات مؤسسات حكومية. ونسبة من تلك المنشورات كتب دعائية يفترض أن توزع بالمجان.

كان الجناح فارغا تقريبا. فالأكيد أن الجالية العربية في ألمانيا لم تتحمس للقدوم إليه ولا إلى كثير من الأجنحة العربية التي طبعت مشاركتها الشكلية والاستعراض.

حتى جناح مصر كان بائسا بمحتواه من كتب يمجد كثير منها إنجازات عهد العسكري السيسي. الجناح المصري كان يحتفل بنشر كتاب حول قناة السويس الجديدة، واحدة من مشاريع السيسي العظيمة الكثيرة التي طواها النسيان سريعا.

أخذت زاوية مناسبة لرؤية كلا الجناحين اليوناني والسعودي في الوقت نفسه. وأخذت أتأمل هذا الوضع المزعج. الفرق واضح بين دولة ترعى النشر بلغتها مع قلة انتشارها في العالم وتشارك بهدف خدمة الكتاب اليوناني ونشره وبين مشاركة السعودية التي يقررها بيروقراطيون بدون رؤية واضحة ولمجرد تسجيل المشاركة.

مصاريف الجناحين هي نفسها إن لم تكن مصاريف الجناح السعودي أكثر. والمردود مختلف للغاية.

حالة الأجنحة العربية في معرض الكتاب تبين أسباب ضعف حضور العربية في العالم وضعف الترجمة منها وإليها. وهو ضعف يستفيد منه من يرون الاستمرار في استخدام لغات أجنبية في تدريس العلوم وإدارة الندوات.

والحل يكمن في حكم الشعب لنفسه واتخاذه لقرارات السياسة اللغوية بحسب ما يصلح لكل بلد ولكل إقليم وليس وفق هوى حاكم يتخذ قراره من مكتب مركزي في العاصمة.

اللغة المجرية لغة التعليم في المجر

دخلت مكتبة جامعية في حي (بيست) من العاصمة بودابيست. سجلت خلال دقائق و حصلت على بطاقة لاستخدام المكتبة.

قمت بإحصاء بسيط في رف في قسم علم النفس فوجدت أنه من بين 20 كتابا كانت 3 بالإنجليزية و 17 بالمجرية

و في رف من صنف الإبيستيمولوجيا (علم العلوم) كانت 6 كتب من 42 بالإنجليزية و واحد بالألمانية و الباقي بالمجرية.

الجامعات تدرس العلوم بكل أنواعها بالمجرية ما عدا الأقسام التي تستهدف الطلبة الأجانب فهي تعتمد الإنجليزية (عملية تجارية انتشرت في كل أوربا)

غريب كيف تتوفر كل هذه الكتب بلغة لا يتحدثها أكثر من 14 مليون شخص في العالم. و تعتبر من اللغات الصعبة و المعزولة، فهي ليست من اللغات الهندية الأوربية.

التفسير الأرجح هو وجود سياسات حكومية تدعم اللغة المجرية و النشر بها في كل المجالات.

المكتبات التجارية في المدينة تسير على نفس النسق. فقد لاحظت في مكتبة تجارية في مركز العاصمة المجرية أن محتواها بالكامل باللغة المجرية.

الكتب في موضوعات متعددة و متنوعة حتى إن من بينها كتابا حول لورنس الجاسوس الملقب لورنس العرب.

أتساءل كيف يمكن لصناعة نشر أن تزدهر ضمن سوق صغير مثل سوق اللغة المجرية.

وأستغرب حال سوق الكتاب العربي الذي يستفيد من سوق من مئات الملايين. شيء ما منع و يمنع الكتاب العربي من الازدهار، و على القراء و المشتغلين في هذا القطاع تحديده.



التسمية المجرية للشركات إجبارية

يفرض القانون المجري على الشركات و المؤسسات المنشأة في البلد استخدام كلمات من اللغة المجرية في تسمياتها. و لا يسمح باستخدام كلمات أجنبية غير تلك التي دخلت إلى اللغة المجرية و توافقت مع خصائصها الصوتية و اللغوية.

و يتم الاحتكام في حالة الخلاف إلى أكاديمية اللغة التابعة لأكاديمية المجر للعلوم في تحديد الكلمات المقبول استخدامها.

كتب "المناجمنت" بالسلوفاكية!

بداية يوليو كنت أشرب قهوة في أحد مقاهي المكتبات في براتيسلافا عاصمة سلوفاكيا. و مقاهي المكتبات منتشرة عندهم و هي تكون جزءا من كل مكتبة كبيرة.

في مواجهتي رفوف كتب الاقتصاد. قمت من مكاني إلى عمود مخصص لكتب التدبير، و قد فهمت ذلك من خلال العنوان Manazment و قد فحصت عشرات الكتب في كل مواضيع التدبير و تفاصيله بحثا عن كتاب بغير اللغة السلوفاكية فلم أجده في الرفوف الثلاثة العلوية حتى أتعبني البحث.

السلوفاكية لغة لا تتجاوز بلد سلوفاكيا نفسه إلا إلى أقليات صغيرة في البلدان المجاورة. و مجموع من يتكلمها في العالم بضعة ملايين.

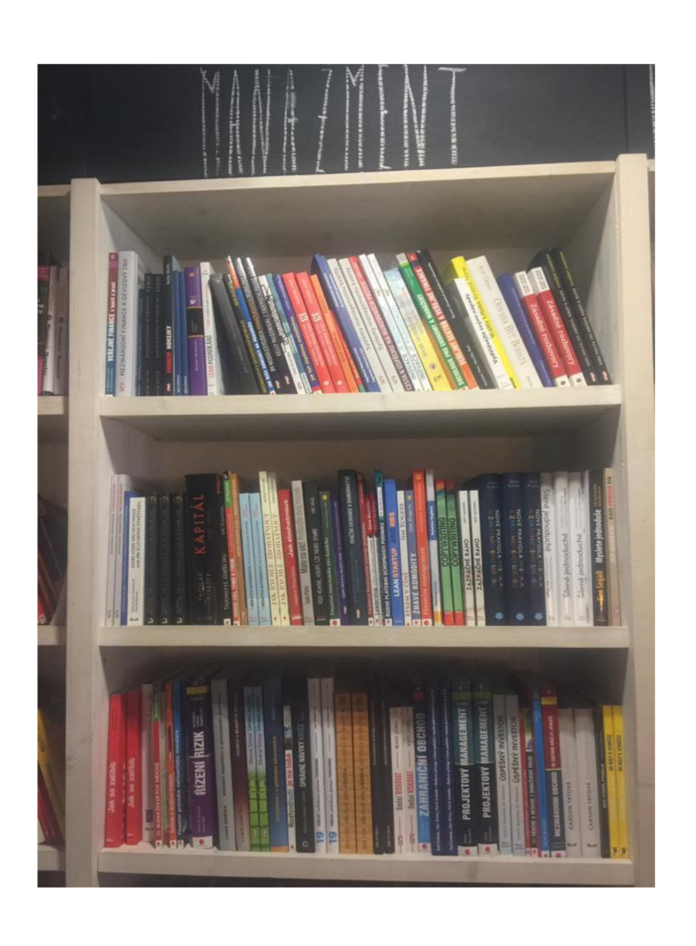
قانون اللغة السلوفاكية المطبق في البلاد واضح و صارم و هو ينص على أن الإدارة و التعليم و الإعلام تكون باللغة الوطنية. و قد كان القانون محل خلاف و احتجاج من البلدان الموجودة على حدود سلوفاكيا بسبب خوفها على الأقليات اللغوية المتكلمة للغاتها في سلوفاكيا. و لكن لم يتم تغيير القانون برغم النقاش الحاد الذي صاحبه.

وقد جاء في ديباجة قانون **اللغة** السلوفاكية "**اللغة** السلوفاكية أهم سمات تميز الأمة السلوفاكية وأثمن قيمة في موروثها الثقافي"[12]

وضوح السياسة اللغوية و توفير الشروط المادية و الإدارية لنجاحها يساعد صناعة الكتاب و المعرفة و الإعلام.

بينما تؤدي السياسة اللغوية المترددة و المتناقضة و المركبة من خيارات متنافرة كما هو الحال في بلدان المغرب الكبير المتفرنسة إلى أضرار كبيرة بقطاع الكتاب و المكتبات و المعرفة.

[12] . قانون اللغة السلوفاكية (ترجمة إنجليزية رسمية) http://www.culture.gov.sk/vdoc/462/an-act-of-parliament-on-the-state-language-of-the-slovak-republic--1ab.html


MANAZMENT

دراسة الهندسة بالتايلندية!

جلس إلى جانبي طالبان من إندونيسيا يدرسان بألمانيا حضرا لزيارة رواق إندونيسيا ضيف الشرف في معرض فرانكفورت للكتاب في أكتوبر 2015. وبدأت الأسئلة المعهودة:

- ما هي لغة التدريس في الجامعة بإندونيسيا؟

كالعادة أيضا ظهر على وجه الطالب المجاور لي نوع من التعجب من السؤال. لكنه أجاب:

- الإندونيسية.

- ماذا عن تدريس الطب؟

- بالإندونيسية.

- والمراجع هل تتوفر بالإندونيسية

- تتوفر بالإندونيسية وبعضها بالإنجليزية

- والرياضيات؟

- الإندونيسية

- والفيزياء؟

- الإندونيسية

تدخل الطالب إلى جانبه لحسم الموقف

- كل الشعب بالإندونيسية بالطبع!

لم تكن المرة الأولى التي أدخل فيها حوارا من هذا النوع. فقد سبق أن طرحت نفس السؤال على ناشرين من التشيك وهي جمهورية أوربية يتكلم لغتها عشرة ملايين شخص.

- ما هي لغة تدريس الطب في الجامعات التشيكية؟

- التشيكية طبعا

- والهندسة؟

- بالتشيكية أيضا

- والاقتصاد؟

- كل المواد تدرس بالتشيكية! هل عندك مشكلة في الأمر؟

لغة بعشرة ملايين متحدث وتستخدم في تدريس كل المواد. هل أخضعوا الأمر لدراسة جدوى؟ هل نظروا في مستقبل أبنائهم الدراسي وهم يحرمونهم من فرصة إكمال الدراسة في فرنسا؟ لكن، ألا يأتي لفرنسا طلاب من كل العالم دون أن تكون لغة دراستهم السابقة عائقا أمام انتسابهم للجامعات الفرنسية؟ ففي كل العالم تقريبا، تكفي سنة من الدراسة المكثفة للغة للالتحاق بالشعب العلمية.

وقبل ذلك التقيت في الفندق ناشرا من كرواتيا. وأثناء الحديث عن صناعة النشر والكتاب في بلده سألته:

- ما هي لغة التدريس في كرواتيا؟

أجاب بسرعة بنبرة استغراب:

- الكرواتية.

سألته عن عدد سكان البلد فذكر أنهم 4 ملايين ونصف (المغرب أكثر من كرواتيا 7 مرات).

عاودت السؤال بغباء:

- ما هي لغة تدريس الطب في الجامعة؟

- الكرواتية

- والعلوم؟

- الكرواتية

تدخلت رسامة كتب أطفال إيطالية كانت معه قائلة بشيء من الاستهجان:

- إنها لغتهم الوطنية!

ناقشت مسألة لغة التدريس مع أشخاص من دول مختلفة ولم أجد وضعا يشبه ما يوجد في شمال إفريقيا وغربها وفي مستعمرات فرنسا السابقة من غير الهند الصينية.

وتلقيت نفس الأجوبة. اللغة الأم هي لغة التدريس. ومسألة صلاحيتها وجدواها ليست مطروحة أصلا.

فيمايو2015، وفي رحلة على خطوط آسيا من سيدني بأستراليا إلى كوالالمبور بماليزيا جلس إلى جانبي شاب تايلندي. كانت الرحلة تسع ساعات فكان لا بد من تقصيرها بشيء من الحديث مع جاري.

عرفت منه أنه مهندس صناعي. وأنه من الأقلية المسلمة. تواصلنا برغم إنجليزيته الضعيفة. شرح لي أن دراسته تمت بالتايلندية في كل المواد. وأنها اللغة المستخدمة في التدريس بشكل عام في بلاده.

عند تبادل صفحاتنا الشخصية على فيسبوك وجدنا صعوبة فاسمي مكتوب بالعربية واسمه بالحروف التايلندية. تجاوزناها بسرعة بفضل العنوان الذي يعتمده فيسبوك والذي يستخدم حروفا لاتينية.

المهندس التايلندي جعل اسمه على وسائل التواصل الاجتماعي بلغته في تناسق مع كونها لغة ما ينشره على صفحته. وليتم نطق اسمه بشكل سليم دون حاجة لوساطة حروف أجنبية.

ماذا عن اسمك على فيسبوك؟ هل هو بلغتك الأم أو أنك ترى أفضلية للحرف اللاتيني؟

الجورجية

حتى جورجيا، التي لا يتكلم لغتها إلا 4 ملايين، و لها نظام كتابة خاص بها، تدرس العلوم بالجورجية.

قانون اللغة الجورجي واضح في أن الجورجية هي لغة التشريع و القضاء و عمل الإدارة التنفيذية و التدريس بكامل مراحله. لغة التدريس في التعليم العالي في جورجيا هي الجورجية، و في إقليم أبخازيا تستخدم اللغة الأبخازية أيضا. و أنه في الحالات التي تستخدم فيها لغة أخرى في التدريس يكون من الواجب إدراج اللغة الجورجية كمادة. و ذلك وفقا للفصل 4 من قانون التعليم العالي في جورجيا[13].

تمكن مقارنة نص قانون اللغة الجورجي[14] بمشروع قانون اللغات في المغرب لاكتشاف الفرق الشاسع في صرامة و وضوح حماية اللغة أو اللغات الرسمية.

إحياء اللغة الإيرلندية في إيرلندا الشمالية

يتحدث اللغة الإيرلندية حوالي 100 ألف من سكان إيرلندا الشمالية من بين مليون و ثمانمائة ألف.

وكلهم تقريبا من الكاثوليك الجمهوريين. أما البروتيستانت الموالين لبريطانيا فموقفهم من هذه اللغة عدائي. وقد ضيقوا عليها خلال حكمهم للإقليم و استبعدوها من وسائل الإعلام.

يجري مجهود حثيث لاستخدام اللغة الإيرلندية لغة تعليم في المدارس. واليوم يدرس بها حوالي 5000 تلميذ مختلف المواد الأدبية و العلمية.

[13] http://www.eqe.ge/res/docs/2014120816022280962.pdf .

[14] https://matsne.gov.ge/en/document/download/2931198/0/en/pdf .

و تعترف الحكومة البريطانية باللغة الإيرلندية لغة أقلية. وتتعهد بدعمها وفق الميثاق الأوربي للغات الجهوية و لغات الأقليات. وهو ميثاق كانت فرنسا الدولة الأوربية الوحيدة التي رفضت المصادقة عليه.

كاتالونيا

لا بد أن تتوقف عند جناح كاتالونيا بمعرض فرانكفورت للكتاب، أكتوبر 2015، لو مررت بجانبه.

الديكور الجميل للرواق يثير الانتباه فهو بديع وأصيل. والرواق نشط وحق له ذلك فهو مشترك بين مؤسسات تفتخر بهويتها الكاتالانية وتخدم لغتها وثقافتها بكل ما تستطيع وكل ما يتوفر لديها من موارد.

وكاتالونيا مجتمع محكوم ذاتيا في أقصى الشمال الشرقي لمملكة إسبانيا. وقد كان جزءا من الأندلس التاريخية. ويتكون من أربعة أقاليم هي برشلونة، ليدة، جيرونة وطرغونة. وعاصمته مدينة برشلونة. سكانه سبعة ملايين ونصف مليون يتحدث أربعة ملايين منهم الكاتالانية لغة أما.

مساحة كاتالونيا هي 32 ألف كيلومتر مربع، وهي تعادل نصف مساحة جهة كلميم واد نون جنوب المغرب. لكن الناتج الخام الاسمي لكاتالونيا يزيد على ضعف الناتج الخام للمغرب بأكمله.

عرفت كاتالونيا حركة إحياء نشطة للغة والثقافة المحلية بعد نهاية دكتاتورية فرانكو. وأصبحت برشلونة مركزا لصناعة النشر في إسبانيا. ولذلك كان شعار جناحها في المعرض "كاتالونيا: بلاد الكتب، برشلونة: عاصمة النشر"

تنظيم الجناح مشترك بين معهد (رامون لول) ومجلس مدينة برشلونة، وإدارة الثقافة وجمعية الناشرين الكاتالانيين.

التناسق والانسجام بين جهود الجهات المشتركة في شغل الجناح واضح. وهو تناسق ناتج عن وضوح سياسة كاتالونيا اللغوية والثقافية والتي تشرف عليها "الإدارة العامة للسياسة اللغوية"

وتؤطرها تشريعات مفصلة بدءا من أحكام بالقانون الأساسي لمجتمع كاتالونيا المحكوم ذاتيا مرورا بتشريعات صادرة عن البرلمان الكاتالاني ووصولا إلى مقررات إدارية تصدرها مختلف الإدارات المتدخلة في الشأن اللغوي والمعرفي. بحيث لا يتركون شيئا للغموض والمصادفة.

معظم محتويات الجناح باللغة الكاتالانية. والتي يمكن فهم سياقها لمن يحسن الإسبانية والفرنسية. ففيها من اللغتين الشيء الكثير.

وللكاتالانيين اعتزاز غريب بلغتهم. فكافة العناوين الإشهارية والإعلانات والتنبيهات في شوارع برشلونة بالكاتالانية. وحتى أسماء المؤسسات الحكومية والمستشفيات والجامعات مكتوبة بالصيغة الكاتالانية وحدها في الغالب.

وقد زرت البرلمان في برشلونة، وشاركت في جولة مصحوبة بدليل يشرح تاريخ وعمل البرلمان. وهي جولة متوفرة بالكاتالانية فقط. فكانت فرصة لأحاول فهم ما أستطيع من شروح حول عمل برلمان منطقة محكومة ذاتيا وتحاول الاستقلال محاولة مرنة لا تصادم فيها مع سلطات مدريد المركزية. حتى إن المراقب يمكن أن يتساءل: هل هم يريدون الاستقلال حقا أم أنهم يستخدمون المطالبة به وسيلة لانتزاع المزيد من الصلاحيات لإقليمهم المتمتع بصلاحيات واسعة أصلا.

وتعتبر اللغة الكاتالانية اللغة "الخاصة" بالإقليم، وهي لغة الإدارة والتعليم والإعلام الحكومي. وينص القانون على أن الكاتالانية والقشتالية (الإسبانية) لغتان رسميتان لسكان الإقليم حق استخدام أي منهما وعليهم واجب تعلمهما. وتوفر الحكومة المحلية شروطا وموارد لضمان حق الاستخدام وتسهيل تحقيق واجب التعلم.

وتشجع الحكومة ومؤسسات المجتمع المدني تحسين استخدام الكاتالانية في التعليم والتجارة والتقنيات الحديثة والتواصل وتعمل على تعليمها للوافدين الجدد على الإقليم.

واللغة الكاتالانية ليست رسمية إلا في كاتالونيا أو في دولة أندورا الصغيرة في الحدود الإسبانية الفرنسية.

وتبين تجربة اللغة الكاتالانية أن دعم استخدام لغة في كل مجالات الحياة أمر يحتاج إلى

سياسة لغوية واضحة، وأن العبء الأكبر في توسيع مجال استخدام اللغة الأم يقع على عاتق مؤسسات الدولة التشريعية والتنفيذية بالتعاون مع مكونات المجتمع وفي ظل اعتزاز بالهوية ويقين بأن اللغة الأم مناسبة لكل الاستخدامات وأنها لا تقل شأنا عن باقي اللغات الحية في العالم.

عربية وأمازيغية بلا إقصاء

نبهني البحث في السياسة اللغوية في إقليم كاتالونيا إلى ظاهرة يمكن أن نستفيد منها في بلداننا. فإحياء ودعم اللغة الكاتالانية لم يعن أبدا إقصاء اللغة القشتالية (الإسبانية) أو استبعادها واستعداء الناطقين بها.

بل تم تحديد الكاتالانية باعتبارها لغة خاصة بالإقليم، ثم النص على أن كلا من الكاتالانية والقشتالية معا لغتان رسميتان. وأن للمواطن الحق في الحصول على التعليم والخدمات بأي منهما وعليه واجب تعلمهما وأن حكومة الإقليم تساعد في ضمان الحق وتوفير الوسائل المساعدة للمواطن في القيام بالواجب.

ولم يتم ترتيب أي جزاءات على من لا يعرف واحدة من اللغتين. بل ترك الأمر لمحض الاختيار. مع جعل الكاتالانية إجبارية في المدارس المحلية كمادة دراسية. وترك اختيار لغة التدريس لآباء التلاميذ واحترام العرض والطلب في التخطيط المدرسي تبعا لذلك.

هذه الفكرة تقوم على:

- احترام واقع وجود لغتين في الإقليم، واستحالة أن تقصي إحداهما الأخرى،
- ترك الخيار الحر للمواطن،
- استخدام إمكانية تمييز اللغة الخاصة بالإقليم بالدعم والترقية باعتبار اللغة

الرسمية الأخرى مدعومة وطنيا وفي وضع جيد تاريخيا وتعليميا،

- صرف مخصصات التعليم والثقافة على تعليم وأنشطة اللغات الرسمية بشكل شبه تام لا يبقي لموضوع تعلم لغة ثالثة إلا المساحة التي يستحقها باعتباره أمرا تكميليا،

- قبول أن اللغتين الرسميتين معا لغتان أصليتان لكثير من سكان الإقليم ممن ينشأ على تعلمهما من سن مبكر.

هذا التفكير البعيد من الإقصاء والقائم على التكامل والتعايش أمر محبذ. وقد عاشت مناطق من العالم الإسلامي واقعا مشابها له لعدة قرون في تعايش العربية والفارسية، والعربية والكردية، والعربية والتركية والفارسية معا في بعض المناطق، والعربية والأمازيغية، دون أن نقرأ في تاريخنا عن حظر لغة أو فرض أخرى ولو كانت العربية. إلا ما حدث من انحرافات بعد الحرب العالمية الثانية، نتيجة عقائد القومية المتطرفة في تركيا والعراق والشام والمغرب الكبير. وهي انحرافات تقلد سلوك الدولة الوطنية في أوربا لحقب طويلة.

ولا تقتصر حالة الثنائية اللغوية المتعايشة على كاتالونيا. بل نجدها في جاليسيا وإقليم الباسك في إسبانيا. كما نجدها في سكوتلندا وويلز ببريطانيا.

وفي كل هذه الحالات هناك لغة رسمية وطنية لها انتشار عالمي واسع (الإسبانية أو الإنجليزية) وتفتح آفاق تعليمية وآفاق مهنية جيدة أمام متحدثها مقابل لغة محلية قليلة الانتشار، وقد تكون لغة أقلية في الإقليم نفسه كما هو حال الأوسكيرا في الباسك واللغة الويلزية واللغة الغيلية في سكوتلندا.

كل هذه الأقاليم تعتبر لغاتها المحلية رسمية وتعمل على إحيائها ونشرها وتنفق على ذلك وتوفر للتلاميذ فرصة التعلم بها وتشجع على استخدامها في الفضاء العام والإعلام. وتوفر موارد الترجمة اللازمة لذلك.

وفي الوقت نفسه لا تتخذ هذه الأقاليم موقفا عدائيا من اللغة الوطنية ولا تعتبر اللغة المحلية مُقْصِية أو نافية للغة الوطنية. بل تعمل على احترام واقع الثنائية اللغوية وقبوله من خلال تشجيع إتقان اللغتين بما يخدم مصالح مواطنيها.

بنفس الطريقة يمكن للحكومات المحلية في الأقاليم التي توجد فيها نسبة مهمة من الأمازيغ أن تتبنى سياسات تشجع استخدام الأمازيغية في كل المجالات دون أن تبعد العربية أو تعاديها. ويمكن أن يتوفر في موريتانيا التعليم بالوولفية و السونونكية و البولارية مع مكانة محفوظة للعربية. ولن يتأتى ذلك إلا بأن يكون القرار في السياسة اللغوية بيد الحكومات المنتخبة والحكومات المحلية وبعيدا عن تعسف نخبة تريد المحافظة على خندق الهوة بينها وبين عموم الشعب واسعا حتى لا ينافس أبناء الشعب "أبناء الذوات" على المناصب القيادية والمهن الجيدة.

الباسكية من السرية إلى الرسمية

مراحل تطور المدارس ثنائية اللغة في منطقة الباسك:

- المرحلة السرية، في الستينات والسبعينات فتحت مدارس تعلم الباسكية إلى جانب الإسبانية في ظل نظام فرانكو الدكتاتوري الذي كان يمنع اللغات من غير القشتالية.

- الخروج للعلن، تم في السبعينات مع نهاية نظام الجنرال

- ترسيم اللغة الباسكية في إقليم الباسك سنة 1979

- إقرار قانون الثنائية اللغوية سنة 1983، وتوفير خيار الدراسة بالباسكية بحسب طلب الآباء

- طلب متصاعد للتدريس بالباسكية رافقته حاجة لتوفير مواد وموارد للتدريس بها

- توفير ثلاث مسارات لغوية للاختيار من بينها:

أ. التدريس بالإسبانية مع وجود الباسكية كمادة دراسية

ب. التدريس بالإسبانية والباسكية معا مع وجود الباسكية والإسبانية كمادتين دراسيتين

ج. التدريس بالباسكية مع وجود الإسبانية كمادة دراسية

وقد أعد المساران أ و ب لفائدة التلاميذ من عائلات تتحدث الإسبانية في البيت. ولكن لوحظ أنه حتى تلك العائلات كان لها إقبال على تسجيل أبنائها في المسار ج، وأحيانا يشكلون أغلبية في الأقسام.

يذكر أن الباسكية لغة يتيمة، لا تشبهها أي لغة في العالم. ولذلك فهي مختلفة بشكل تام عن الإسبانية. وعدد من يتكلمها في العالم لغة أما هو 550.000 ألف وإجمالي من يتحدثها بمن فيهم متعلموها كلغة ثانية أو ثالثة 720.000 ألف.

ولنقارن كل ما سبق بجهود الناشطين الأمازيغ في تعليم ونشر الأمازيغية.

المجتمع يقمع من يستخف بلغته

ما يحدث في المغرب من سخرية من طريقة حديث وزيرة السياحة في البرلمان يبشر بأن الاستخفاف بالعربية، سواء الفصيح منها أو الدارج، لم يعد يمر بدون تكلفة.

وهو يبعث برسالة قوية للنخبة أن تعليم أبنائهم إتقان الفرنسية والإنجليزية واعتبار العربية "في اليد" بدون جهد سلوك خاطئ ومكلف في فرص أبنائهم في النجاح.

ارتباط الحديث بلغة أجنبية بوضع اجتماعي أعلى وارتباط الحديث بلغة الشعب بصور سلبية مثل الفقر والحاجة والبداوة (كما ينظر إليها سكان مراكز المدن) ظواهر سلبية عانت منها مجتمعات كثيرة وبعضها تمكن من التخلص منها.

ومالطة نموذج على النجاح في رفض الحديث بالإنجليزية بين المالطيين من غير سبب يدعو له.

فحتى السبعينات كانت النخبة تميز نفسها بتكلف الإنجليزية وترك الحديث بالمالطية. وكانت اللكنة الإنجليزية النقية تفيد بأن صاحبها ذو ثروة وجاه.

وجاء تحول مالطة إلى جمهورية وتخلصها من تبعية التاج البريطاني، وزيادة الاهتمام باللغة المالطية واعتمادها لغة رسمية متزامنا مع تنامي الشعور بالهوية الخاصة بالجزيرة الصغيرة ليجعل الجمهور ينظر بسلبية لمن يحاول فرض سلطة معنوية وهمية من خلال لسان إنجليزي مستعار.

وبالتدريج اختفت ظاهرة تكلف الإنجليزية وأصبح المالطيون يتحدثون لغتهم بينهم في كل المجالات. وذلك برغم كون الإنجليزية لغة رسمية أيضا، ومستخدمة في التدريس بالجامعة.

وقد شدد (بيير ماليا) وهو مدير بالبرلمان المالطي في حوار لي معه داخل البرلمان المالطي بفاليتا على أن لغة العمل في المجال التشريعي هي المالطية. وشاهدته في حديثه مع زملائه أثناء جولتنا لا يتكلمون فيما بينهم إلا بالمالطية.

كما شرحت لي السيدة فيتوريوسا، مسؤولة التواصل بالجامعة المالطية كيف يتم استخدام المالطية في الشرح والتواصل مع الأساتذة في الجامعة برغم اعتماد الإنجليزية لغة لتدريس الطب والصيدلة والعلوم.

وتتميز تجربة الجامعة المالطية بأن إتقان اللغة المحلية إجباري للتسجيل في شعبة الطب وطب الأسنان حتى الطلبة الأجانب وذلك لأن "التواصل جزء أساسي من عملية العلاج."

وذكرت فيتوريوسا نموذجا أدهشها لطالبة كويتية تدرس الطب وتتحدث المالطية بلهجة محلية أصيلة لا تكاد تميزها عن السكان المحليين.

ولشدة ألفتهم بالحديث بلغتهم، سألتني عاملة في مقهى كوستا كوفي في مركز فاليتا (وهي أصغر عاصمة أوربية)، وهي بصدد إعداد قهوتي، برغم أني خاطبتها بالإنجليزية، قائلة: (هوْنْ يَوْ برَّا) وهي تعني بالخطاب المغربي المألوف في المقاهي (إيسي أو آ أومبوغتي) أي (هنا أو تأخذه)

يفترض في السياسي والمسؤول المغربي أن يتحدث العربية والأمازيغية لكي يستطيع التواصل مع المجتمع وخدمته. ويمكنه بعد ذلك المفاخرة بما يحسن من لغات أجنبية.

ونموذج مجلس شيوخ سويسرا جيد في هذا الباب. فالشيوخ فيه يتحدثون بلغاتهم الأصلية: الألمانية أوالفرنسية أوالإيطالية. ولا تتوفر ترجمة فورية. فالشيوخ يفترض أن يكونوا قادرين على فهم اللغات الرسمية الثلاث للبلد.

حماية البولونية من الغزاة والعولمة

بعبور القطار نهر الأودر، وهو خط الحدود بين بولونيا وألمانيا، في الرحلة من برلين إلى وارسو، يلاحظ المسافر، إن انتبه، أنه يعبر من منطقة لغوية إلى أخرى بدون وجود أي برزخ فاصل بينهما.

فجأة تحولت رسائل القطار الصوتية حول أسماء المحطات والخدمات وتنبيهات الأمان من الألمانية إلى البولونية.

لا أفهم شيئا من اللغتين. ولكن التمييز بين أصواتهما سهل. وقد تحدثت مع بعض المسافرين في الموضوع فقالوا لي إن هذا إجراء مألوف وطبيعي.

الحدود مفتوحة بين دول الاتحاد الأوربي، والحواجز رفعت. ولكن الحدود الثقافية واللغوية واضحة جدا. وكل مجتمع محلي يدافع عن هويته بكل شراسة.

كانت أسماء المحلات ولوحات الإعلانات وعلامات الطرق بالألمانية حتى النهر الحدودي فانقلب كل شيء بولونيا.

سياسة التواصل والتشوير مبنية على الاستجابة لما يطلبه القانون ولحاجيات أغلبية السكان. وهي سياسة لا تحاول أن ترضي سائحا عابرا. وإن حاولت فيا ترى أي لغة ستستخدم؟ الإنجليزية؟ الفرنسية؟ الصينية؟ اليابانية؟ الروسية؟

بولونيا تقع لسوء حظها بين جارين كانا في كثير من مراحل التاريخ الحديث شريرين تجاهها. وحاولا ابتلاعها كبلد وثقافة بالحيلة مرة وبالغزو مرة أخرى.

ولوتم حساب الأمور بمنطق شمال إفريقيا لاختار البولونية الألمانية لغة لدراسة العلوم و التقنيات باعتبارها لغة بلد جار قوي وثري وشديد الحضور في مجال البحث العلمي ويشكل للطالب

البولوني فرصة لإتمام دراسته العليا في جامعات راقية.

أو لقلنا إن اللغة الروسية التي فرضت كلغة ثانية خلال الاحتلال السوفياتي المباشر وفي حقبة الشيوعية التي تلته يجب أن تكون تحولت بحكم الواقع ولأنها أكثر انتشارا من البولونية التي لا يتكلمها إلا 50 مليونا في العالم، إلى لغة للتجارة والعلوم والمجتمع الراقي.

لكن شيئا من ذلك لم يحصل. فخلال تجوالي في وارسو تكررت الملاحظة التي سجلتها في كل بلد أو ربي: الكتب والصحف والمعلومات على المنتجات والإعلانات وقوائم الطعام والتعليم بكل مستوياته والبحث العلمي والكوميديا والإعلام والتواصل الحكومي وكل ما يستخدم فيه حرف أو كلام هو باللغة البولونية.

وقد شهد الفندق الذي أقمت به في قلب العاصمة تنظيم ندوة علمية فكنت أتفحص المطبوعات على طاولات الاستقبال ولافتات التعريف بالنشاط والجهات المنظمة له بحثا عن جملة أجنبية فلا أجدها.

وحتى مبنى المركز الثقافي الكبير الذي أهدته روسيا لبولونيا تغطيه لافتات ضخمة تعلن عن أنشطة ثقافية مختلفة وتنتشر داخله سبورات بعشرات الإعلانات لأنشطة أدبية وموسيقية وترفيهية لا تجد فيها كلمة روسية ولو على سبيل الوفاء والامتنان. ولا عبارة إنجليزية أو فرنسية و لو على سبيل الانفتاح الثقافي والاستعداد للتعايش على النحو الشائع في المغرب الكبير.

ويمكن فهم سر هذا السلوك بقراءة ديباجة قانون اللغة البولونية الصادر سنة 1999[15]:

"إن برلمان جمهورية بولونيا

- أخذا بالاعتبار أن اللغة البولونية تشكل عنصرا أساسيا من الهوية الوطنية وتشكل قيمة من قيم الثقافة الوطنية

- أخذا بالاعتبار تجربة التاريخ حين كانت حرب المحتلين والغزاة على اللغة البولونية جزءا

---

[15] . ديباجة قانون اللغة البولندية (ترجمة إنجليزية)

http://www.polishlaw.com.pl/pdf/act28b_new.pdf

من تحطيم الشعور الوطني

- وتقديرا للحاجة لحماية الهوية الوطنية في زمن العولمة

- وبناء على أن الثقافة البولونية تشكل مساهمة في تطوير ثقافة مشتركة متنوعة في أوربا والحفاظ على هذه الثقافة وحمايتها لا يمكن إلا من خلال حماية اللغة البولونية

- وأن هذه الحماية مهمة كل السلطات والمؤسسات العمومية لجمهورية بولونيا وواجب كل مواطنيها"

عوَض البولونية بالعربية وستحصل على السياسة الملائمة في البلدان المغاربية. علما أنه توجد ببولونيا لغات أقليات عديدة محمية بتشريعات خاصة. مع حفظ مكانة لغة الأغلبية كما هو معمول به في سائر بلدان الغرب ومعظم بلدان العالم.

البولونية الصامدة

يسكن بولونيا 38.5 مليون نسمة. وهي ساكنة لا تزيد كثيرا على سكان المغرب. مما يدفع للتساؤل: كيف تستخدم بولونيا لغتها الخاصة في كل المجالات ولا ينجح المغرب في ذلك؟

البولونية لغة أغلبية في بولونيا وحدها، وهي لا تتمتع بصفة الرسمية إلا في بولونيا. أو في مؤسسات الاتحاد الأوربي التي تزدحم فيها 24 لغة لا تقبل أي منها أن تكون الأخرى خيرا منها.

والبولونية من اللغات السلافية. وهي الثانية بينها في الانتشار بعد الروسية. وأبجديتها تتضمن 9 حروف إضافية للأبجدية اللاتينية.

وقد حاول الغزاة من النمسا وألمانيا وروسيا قمع اللغة البولونية لفائدة الروسية

والألمانية. ولكن البولونيين قاوموا وتمسكوا بلغتهم وباستخدامها في كل مجالات الحياة من إدارة وتعليم وتجارة وغيرها.

ويتحدث البولونية حوالي 50 مليونا عبر العالم. منهم 10 ملايين بالولايات المتحدة ومليون في فرنسا وعدد مشابه في بريطانيا.

وتنص السياسة اللغوية الرسمية للبلاد على حماية اللغة البولونية من خطر الغزو والعولمة. وهو نص مطبق وليس مجرد حبر على ورق. وينص قانون اللغة البولونية على أن حماية البولونية ونشرها من مهمات كافة سلطات الدولة ومؤسساتها.

ويبدو أن هناك جهدا مؤسسيا كبيرا في عملية الترجمة إلى اللغة البولونية. وبفضله تجد معظم محتوى المكتبات العامة والتجارية بهذه اللغة. وتجد أكشاك الجرائد والمجلات ممتلئة بالمطبوعات البولونية. كما يتم تدريس كل المواد في الجامعات بالبولونية برغم توفر أقسام تدرس بالإنجليزية وقد أنشئت لاستقطاب الطلاب الأجانب بالدرجة الأولى.

معهد الكتاب البولوني لنشر الكتاب... البولوني!

يعمل معهد الكتاب التابع لوزارة الثقافة البولونية، على نشر القراءة ودعم الكتاب البولوني في الداخل والخارج من خلال:

- دعم ترجمة الكتب البولونية إلى لغات أخرى بتقديم منح وتدريب للمترجمين، وتوفير ظروف سكن ملائمة لهم لمدد معينة مقابل تدريس طلبة جامعة.

- إنجاز كاتالوج بالكتب الصادرة في بولونيا (بالبولونية طبعا) يتضمن معلومات عن الكتب باللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية لفائدة ناشرين أجانب بغرض البحث عن فرص لترجمة الكتب البولونية ونشرها في الخارج

- نشر مجلات ثقافية تعنى بالكتب الجديدة والمسرح والموسيقى والإبداع (كلها بالبولونية)

- نشر اقتراح بكتاب أسبوعي للقراءة (بولندي دائما)

- نشر مقترحات لكتب الأطفال (بولندية)

- التعاون مع المكتبات العامة لترقيتها وتحسين خدماتها وتحديثها

- تأسيس نوادي مناقشة الكتب (أكثر من 1300 ناد)

ويبدو من خلال تصفح موقع المعهد أن كتب اللغات غير البولونية ليست في دائرة اهتمامه. وهذا طبيعي، فلكل لغة من يدافع عنها. بحسب وزارة الثقافة في كل بلد أن تدافع عن لغاته الوطنية![16]

لا مجال لإنفاق المال العام في نشر لغات أجنبية على حساب اللغات الوطنية!

مجلس اللغة البولونية

سنة 1996 أسس "مجلس اللغة البولونية" وهو تابع لأكاديمية العلوم البولونية.

ينظم قانون اللغة البولونية لسنة 1999 عمل المجلس. ومن مهماته:

- نشر المعرفة باللغة البولونية، واستخدامها الصحيح، وتقديم توصيات بالصيغ الملائمة للتعبير.

- حسم الشكوك في القواعد النحوية وقواعد الصرف والإملاء

- تطوير استخدام البولونية في العلوم والتكنولوجيا وخاصة في التقنيات الجديدة

- تقييم اللغة المستخدمة في المجال العمومي، من إعلام وتواصل حكومي

- تقييم قواعد الكتابة والترقيم

- تقديم الرأي في أسماء المنتجات والخدمات الجديدة، بما في ذلك النحو والكتابة

---

[16] . موقع معهد الكتاب البولوني (الواجهة الإنجليزية)

/http://www.bookinstitute.pl

- تطوير تدريس قواعد اللغة والنحو في المقررات المدرسية

يتعاون مجلس اللغة البولونية مع وزارة الثقافة والتراث الوطني، ووزارة التعليم، ووزارة الداخلية والمفتشية الوطنية للتجارة والبرلمان.

ويقدم المجلس تقريرا حول وضع اللغة البولونية للبرلمان كل سنتين. إضافة إلى نشرة إعلامية كل ستة أشهر[17].

عمل بنكي بالبولونية

أرسلت بريدا إلى مكتبة البنك المركزي البولوني الساعة 9 والنصف يوم 25 أكتوبر 2015 أسأل إن كانوا يتوفرون على كتب حول اتفاقية إنشاء صندوق النقد الدولي. الساعة 10 والنصف جاءني الجواب مع رابط لموقع المكتبة يبين أن هناك 80 وثيقة وكتابا تتضمن كلمة (بريتون وودز) وهي تسمية الاتفاقية المذكورة. واجهة الموقع باللغة البولونية فقط. ودون ترجمتها لا تمكن لمتصفحها الأجنبي الاستفادة منها.

اخترت ثلاثة عناوين وأرسلت بريدا أخبرهم بأني أرغب في الاطلاع عليها.

صباح اليوم التالي ذهبت إلى مقر البنك. له عدة بوابات. كنت أسأل الحراس وكانت كلمة (بيبليوتيك) تساعد في فهم مقصدي فاللغة الإنجليزية تبدو لهم مثل أصوات الطيور بدون معنى.

البناية مصفحة وإجراءات الأمان لدخولها تشابه بوابات المطار. حارس الأمن يحدثني بالبولونية فأفهم من خلال الإشارات.

موظفة تسجيل الزوار تتكلم إنجليزية لا بأس بها. أما المكتبية التي تلقت بريدي وأحضرت لي كتابين من الثلاثة التي طلبت (الثالث معار) فتتكلم الإنجليزية بشكل جيد.

---

[17]. معلومات حول مجلس اللغة البولونية:

http://rjp.pan.pl/index.php?option=com_content&view=article&id=118%3Abasic-information-about-the-council-for-the-polish-language&catid=73&Itemid=61

المكتبة خاصة بالمنشورات الاقتصادية بلغات متعددة لكن نسبة كبرى من محتواها بولونية كالعادة.

هناك طاولات فردية للقراءة وتتوفر الصحف الاقتصادية المحلية والدولية.

كالعادة الطاولات ليست مشغولة بالكامل والزوار قليلون.

الجيد في نظام المكتبات والأرشيفات التي زرت حتى الآن أنها تعتبر ما تقدمه من وثائق موجها للعموم. لذلك لا يهتمون بطرح أي أسئلة على الزائر. وإنما هناك إجراءات أمان قد تتطلب الإدلاء بوثيقة تعريف.

الوثيقة العامة للعموم وليست للمواطن أو الباحث أو فلان دون علان. ويتم توفيرها للإطلاع لمن طلبها بأقصى سرعة ممكنة وبالمجان.

تتوفر واجهة البنك المركزي البولوني بالبولونية والإنجليزية. كما تتوفر القوانين الخاصة بالعمل البنكي بصيغة إنجليزية لمن يريد الاطلاع عليها من طرف الأجانب.

وينص قانون البنوك البولوني على أن مجلس إدارة أي بنك يجب أن يتضمن شخصين يحسنان البولونية. وهو شرط يمكن للسلطات المالية إسقاطه إن رأت أن ذلك لا يضر بمصلحة المتعاملين.

وينص القانون على أن تحتفظ فروع البنوك الأجنبية بنسخة من المحاسبة باللغة البولونية. وأن تكون كل محاضر الجموع العامة والمجالس الإدارية المقدمة للسلطات المالية بلغة أجنبية مرفقة بترجمة مصدقة[18].

ومن البديهي أن البنوك البولونية المحلية تمسك محاسبتها وتعد كافة وثائقها الإدارية باللغة البولونية، خلافا لما هو سائد في دول شمال إفريقيا الفرنكفونية التي تعتمد الفرنسية حتى الآن.

[18] . نص قانون البنوك في بولونيا، الترجمة الإنجليزية الرسمية من موقع البنك المركزي البولوني:

http://www.nbp.pl/en/aktyprawne/thebankingact.pdf

من مولدن إلى سكافستا

طائرتي من وارسو إلى ستوكهولم مع خطوط رايان كانت من مطار ثانوي يبعد عن وارسو ساعة بالباص.

أخذت الباص من وسط المدينة مساء في جو بارد. بائعة التذاكر تحسن من كلمات الإنجليزية ما يكفي للتفاهم. كنت أحمل كأس قهوة أخذته من كشك مقابل للباص أثناء الانتظار للتغلب على شعور البرد القارس. أشارت للكأس قائلة (نو هوت) وأشارت لسلة قمامة قريبة رميت فيه الكأس بعد أن جرعت منه ما استطعت.

اخترت المبيت قريبا من المطار. وجدت فندقا جيدا بسعر معقول في قرية مولدن المجاورة. والخدمات في بولونيا أقل غلاء من بلدان أوربا الغربية. وربما يكون من أسباب ذلك استقلال البلد بعملته وسياسته المالية الخاصة. وتسمى العملة المحلية (زووتا).

يحمل الفندق اسم (الفندق الملكي) وهو جدير بهذا الاسم بالنظر لمستوى الاستقبال والحفاوة بالزبناء. وهي أشياء لا تكلف الكثير ولكن تحتاج إلى أن تكون سياسة لكل شركة تعمل في خدمات الضيافة. وربما يحتاج المستخدمون للتدرب عليها.

كالعادة كانت كل الجرائد على المنضدة بالبهو بالبولونية. أقلبها فأفهم بعض الصور وبعض الكلمات المشابهة للكلمات اللاتينية. وأستغرب كيف تصح السياحة بدون مطبوعات فرنسية وإنجليزية. فكثير من الفنادق في المغرب وتونس حريصة على أن لا يظهر الحرف العربي في مرافقها ولا فيما توفره من منشورات ومطبوعات. وهي تعطي الانطباع بأن السياحة لا تصح إلا بالفرنسية.

تجولت صباحا، قريبا من ضفة نهر (فيستولا) حيث يلتقي بنهر (نارو) وسط مناظر خلابة للأشجار والنباتات، لا يفسدها إلا نسيم صقيعي، لا تسلم منه هذه البلاد إلا

خلال أشهر الصيف.

استغرقت الرحلة ساعة ونصفا. وعبرت خلالها الطائرة فوق بحر البلطيق. ولكن بساطا سميكا من الغيوم البيضاء حال دون ظهور مياه البحر من النافذة.

حطت الطائرة وقت الظهيرة بمطار سكافستا، وهو أيضا مطار ثانوي يبعد عن ستوكهولم حوالي ساعة بالباص. وخطوط رايان معروفة باختيارها لمطارات جانبية أو بعيدة لتقليل التكلفة. وما لنا إلا الصبر عليها بسبب أسعار تذاكرها المغرية.

نهاية أكتوبر 2015

حوار مع سويدي 1

بعد الوصول إلى مطار في ضواحي ستوكهولم أخذت الحافلة في اتجاه المدينة. كنت في الصف الثاني من المقاعد في الجانب الأيسر من الحافلة. كنت سارعت بأخذ مكان محاذ للنافذة كعادة كل سائح يزور بلدا لأول مرة.

جلس إلى جانبي رجل سويدي وجلس ابناه الصغيران في المقعدين أمامنا بينما جلست زوجته في الجانب الآخر واستسلمت للنوم فورا.

كنت أتابع مشاهد الأشجار الطويلة والكثيفة بشكل لم أره من قبل على جانبي الطريق. ولا أعرف كيف بدأ حديث بيني وبين جاري بالإنجليزية.

قال إنه قادم مع عائلته من رحلة سياحة إلى مايوركا بإسبانيا. وتحدثنا عن موضوع الساعة حينها وهو موجة اللاجئين السوريين.

عبر دانيال عن تعاطفه مع اللاجئين لكنه بين أن حجم موجة اللجوء ستزيد فرص اليمين المتطرف في التمكن من الحصول على مزيد من التعاطف الشعبي.

وتحول حديثنا إلى الثورات العربية. فإذا دانيال يردد ما يقوله كثير من العرب عن تحول الثورات بعد أن استغلها الإخوان المسلمون وأن الحالة المصرية قد تكون أفضل مع السيسي إذا

كان سيجلب الاستقرار بدل الفوضى التي أو شكت البلاد دخولها مع مرسي.

الفكرة التي عبر عنها دانيال مريحة لكثير من المراقبين الغربيين للأوضاع في بلداننا. فهي تضع معادلة تجعل الحرية للعرب مرادفة للفوضى، وتبرر بالتالي قبول أخف الضررين وهو حكم مستبد عسكري يبقي الأوضاع في مستوى مقبول من "الاستقرار".

تبسيط الأمور على هذا النحو يجنب المراقب الحاجة لمتابعة التفاصيل والبحث عن المسؤوليات. ويزيح واجب اتخاذ موقف أخلاقي من الظلم الذي "يضطر" المستبد لاستخدامه لتثبيت أركان نظامه.

ودورنا في هذا النقاش هو أن نهز هذه المعادلة ونبين خللها. والحجج في الحالة المصرية سهلة وقريبة.

هل كان مرسي منتخبا؟ نعم. هل استخدم العنف في قمع المظاهرات ضده؟ لا. هل تم إسقاطه بطريقة قانونية وديمقراطية؟ لا. ما هو حال الحريات في مصر في عهد الانقلاب؟ زفت. كيف تم التعامل مع الاحتجاجات على الانقلاب؟ بالإمعان في القتل.

هل أشعل الإخوان المسلمون حربا في مصر بعد إسقاطهم من الحكم؟ لا. كيف واجهوا قتلهم وسجنهم وتشريدهم؟ بالسلمية التامة.

لا يوجد شيء أسهل من المحاجة لفائدة الثورة في مصر. فالسيسي ونظامه يقومان بكل شيء لإدانة أنفسهم ومنهجهم في الحكم.

كان الحوار خلال الرحلة في هذا الموضوع ممتعا وبوصولنا إلى محطة الوصول كنا قد تبادلنا عناوين البريد الإلكتروني وكان دانيال قد أخبرني أنه مستشار قانوني وأن زوجته طبيبة.

ودعتهما في المحطة عازما على التواصل معهما لاحقا. وعلى الاستفادة منهما في فهم حال اللغة السويدية التي لا يتكلمها أكثر من عشرة ملايين شخص في العالم.

حوار مع سويدي 2

بعد بضعة أيام في ستوكهولم بعثت بريدا لدانيال وشكرته فيه على التعارف والحوار في

الباص. واقترحت أن نلتقي.

فكرتي كانت أن نلتقي لساعة في مقهى ونستكمل نقاشا بدا لي أنه مهم للتعرف أكثر على وجهة نظر أوربية بشأن محاولات الضفة الأخرى من البحر المتوسط التحرر من الاستبداد.

أجابني دانيال مقترحا أن أزوره في بيته. وحددنا الساعة 6 ونصف مساء.

بذلت جهدا من أجل أن أصل إلى محطة المترو التي حددها لي دون تأخر. في الطريق مررت على محل بقالة واشتريت علبتي شيكولاتة لابني دانيال بحوالي 8 يورو.

كان دانيال ينتظرني عند المخرج الذي حدده لي. ومشينا من المحطة إلى بيته. وفي الطريق مررنا بضفة بحيرة.

قال مضيفي إن الجليد يكسو البحيرة في الشتاء. وإن المشهد يصبح كئيبا. وتحدث عما يفعله الشتاء الذي كان على الأبواب بنفسيات الناس في المنطقة. البرد والظلام يسببان الإحباط والكآبة.

نعمة الشمس التي نراها كل يوم لا يعرفها إلا الذين حرموا منها.

كان اليوم يصادف الهالوين، وهي مناسبة اخترقت المجتمعات الأوربية قادمة من أميركا. ويحتفل فيها الناس، وخاصة الشباب والأطفال بالتنكر في أزياء مخيفة.

صادفنا لدى باب شقة دانيال أطفالا صغارا يلبسون ملابس تنكرية ويحملون إناء يجمعون فيه حلوى يحصلون عليها من البيوت. صرفتهم (آنه) زوجة دانيال بعد أن أعطتهم بعض الحلوى.

الشقة غاية في الأناقة والديكور المتقن ببساطة وبطريقة تناسب مساحتها وطريقة تقسيمها. مطبخ وصالون يضم مكتبة معظم محتواها باللغة السويدية وغرفة نوم وغرفة للطفلين.

الديكور الداخلي وحسن ترتيب البيوت أمور طارئة على السويديين. ومرتبطة بالثروة والطاقة وانتشار أنظمة التكييف. فقد كان سكان المناطق الباردة شمال أوربا يقضون الفصل البارد في غرفة واحدة مع حيواناتهم من أجل الدفء. وكانت ظروف النظافة والمعاش خلال الشتاء قاسية وصعبة لأغلب المجتمع.

سأل دانيال ابنه هوغو وهو يدرس بالصف الرابع عن موقع الصحراء الغربية فأشار إليه الفتى على خريطة كبيرة للعالم ملصقة على جدار غرفة الطفلين.

قال لي دانيال إنه حتى ابنه على علم بموضوع الصحراء الغربية المثار بشدة حينها في الإعلام، والذي كانت أحزاب سويدية تسعى إلى أن تتخذ فيه الدولة السويدية موقفا مساندا لجبهة البوليساريو.

(هوغو) يتحدث قدرا من الإنجليزية. ويستعين بأبويه حين تعجزه كلمة. أما أخوه الصغير الذي يدرس بالصف الأول فلا يتحدث أي كلمة من لغة أجنبية. فهم لا يدرسونها في (الروض الصغير) ولا في (الروض الكبير) ولا حتى في (السنة الأولى ابتدائي) وإنما يكتفون باللغة السويدية.

والغرض من ذلك أن يبدأ الطفل بإتقان لغته الأم أولا. ولا يشوش عليها بلغة أخرى. فهي اللغة التي سيتلقى بها دراسته. والإعلام من حوله. وهي التي سيستخدمها في المجتمع والعمل لاحقا. وتقديمها على اللغات الأجنبية ليس محل مساومة.

تحدثنا عن الهالوين والسياسة واللاجئين وأشياء كثيرة أخرى منها المساواة بين الرجل والمرأة في السويد وهو موضوع عقدي في سكندنافيا، يكفَّرُ من يشكك فيه بأي شكل.

وكانت فرصة لأسأل الدكتورة آنه عن لغة تدريس الطب في السويد باعتبارها طبيبة.

قالت إنهم درسوه باللغة السويدية. وسألتها عن المراجع فوضحت أن المراجع بعضها متوفر بالسويدية وبعضها بالإنجليزية.

وكنت شاهدت رفوف كتب الطب في مكتبة ستوكهولم العامة تتضمن كتبا بالسويدية والإنجليزية مصنفة حسب الموضوع وليس حسب اللغة.

قررت أن أسأل أكثر كي أحصل على اعتراف بدور اللغة الأجنبية. فسألت عن الندوات. قالت آنه: يمكن أن تقدم أو راق بحثية باللغة الإنجليزية لكن المناقشات تكون قطعا بالسويدية. وفي هذا السلوك تنبيه مهم إلى أن تكلف الحديث بلغة أجنبية بدون ضرورة دليل عقدة نقص ونوع من التظاهر بالثقافة والرقي بسبب احتقار الثقافة المحلية.

الغريب في الأمر أن عدد متحدثي السويدية في العالم أقل من عشرة ملايين. يعني أقل من عدد سكان تونس لوحدها. آه يا تونس: الحرية والترفع عن الهوية لا يلتقيان!

كانت الزيارة فرصة لأدرك أكثر وجوب الحوار مع الأوربيين جيراننا. وهو حوار يحتاج بعض الشروط لينجح:

- عليك أن تكون معتزا بنفسك وهويتك، وملقحا ضد الانبهار الحضاري الحاد

- يمكن أن تسب النظام في بلدك، لكن لا تسب بلدك، ولا لغتك ولا ثقافتك حتى لا يحتقرك محاورك

- لا تكثر من الحديث عن مشاكلك المادية فمحاورك ربما يكون أفقر منك

- استمع أكثر مما تتكلم

- لا تحملك المجاملة على قبول أفكار خاطئة من محاورك، صحح بهدوء واحترام فالخلاف ممكن

- كن ندا، وحافظ على رأسك مرفوعا فلا أحد يحب الرأس المنحني

بعد تناول العشاء والقهوة، أحضرت آنه لعبتين صغيرتين وحملتنيهما أمانة لابني وابنتي، فقد كانت ممتنة جدا لهديتي البسيطة.

اللافتة تقول: ارحل

في كوبنهاجن، يصعب على الزائر الذي لا يتكلم الدانمركية أن يعرف ما الذي يدور في البلاد.

الجرائد كلها بالدانمركية. الإعلانات، المعلومات على المنتجات، المطبوعات الإشهارية إلا ما قل منها، كلها بالدانمركية.

قنوات التلفزيون المحلية كذلك.

تمر بجانب مظاهرة فتجد كل اللافتات والشعارات بالدانمركية فلا تعرف هل المظاهرة مع اللاجئين أو ضد اللاجئين. لا بد أن تسأل.

والحال نفسه في السويد.

كل شيء بالسويدية. وهناك مررت مرة بقرب مظاهرة فسألت إحدى المنظمات عن مطالبهم فشرحت أن اللافتات تقول (مرحبا بالمهاجرين) و(السويد بلد متعدد الثقافات) وما إلى ذلك. كانت مظاهرة تطالب البلد باستقبال المزيد من اللاجئين والأجانب وتجنب الكراهية.

في اليوم الموالي وفي مركز المدينة كانت هناك مظاهرة أخرى. وسألت أحد المنظمين عن الخطب.

فقال: اللافتات تقول (ارحل) و(استقل) لرئيس الحكومة. نحن نقول لهم (إن كنتم عاجزين فاذهبوا). ونحن نطالب بمزيد من الحزم والقرارات الجريئة.

ثم نظر إلي وهو يهم بالمغادرة، وأضاف (ونطالب بمزيد من ضبط الحدود.)

علما أن الدانمركية يتكلمها 5.6 مليون والسويدية 9.9 مليون.

السائق الأفغاني يتعلم العربية

نظر سائق الباص إلى تذكرتي وقال لي بالإنجليزية "نعم، إنها تصلح لثلاثة أيام"

ثم سألني من أي بلد أنت؟ أخبرته، فانتقل إلى الحديث بالعربية. قائلا: أنا أتحدث العربية، لكن الفصحى فقط. قال إنه من أفغانستان. وإنه تعلم العربية بالجامعة في كوبنهاجن. ومن المواد التي يدرسها الأدب العربي، وإنه مكلف بإنجاز قراءة في رواية "عمارة يعقوبيان" لعلاء الأسواني.

سألني إن كنت أعرف المؤلف. فقلت له إنه مؤلف معروف في العالم العربي. لكنه رجل أفسد سيرته بالوقوف مع الانقلاب في مصر ومساندة القتل والقمع.

وانتقلنا إلى الحديث عن الثورات والحالة في المغرب وفوز الرباعي في تونس بجائزة نوبل.

السائق الأفغاني كان سعيدا بفرصة للتحدث بالعربية. وكان يتحدثها بفصاحة ويسر أفضل من بعض أساتذة الجامعات وكبار المثقفين في شمال إفريقيا.

يشار إلى أن تذاكر القطار والباص في ألمانيا وبولونيا والسويد والنرويج والدانمرك محررة باللغات المحلية فقط وليست أي منها لغة واسعة الانتشار. ويبقى السائح الذي درس الفرنسية لتفتح له العالم محتارا يخمن رقم الرصيف وتفاصيل الرحلة.

برلمان النرويج

لم أر في أوسلو شيئا يميزها كي يكون البلد مصنفا كأكثر البلاد ديمقراطية. البرد شديد، والبنايات متوسطة مقارنة بالعواصم الأوربية. والناس لا تبدو في حالة من السعادة الاستثنائية.

ولبحث الأمر ذهبت إلى مبنى البرلمان فإذا هو مبنى كبير لا يحيط السياج بسوى واجهة واحدة من واجهاته الأربع. كل التوضيحات القريبة من البوابات باللغة النرويجية. رأيت حارسة أمن واحدة فسألتها عن الجولات الخاصة بالسياح فقالت «لا توجد جولات اليوم». سألتها عن بوابة دخول العموم كي أحاول دخول جلسة عامة إن كانت منعقدة فطلبت مني التوجه إلى الجانب الآخر من البناية. لم أجد أحدا أتحدث معه هناك فتحولت إلى بوابة أخرى على جانب ثالث. وجدت رجلا ملتحيا يفتح الباب بكود دخول خاص به فاطمأننت إليه باعتباره من الإخوان «المسيحيين». وهم كثر في النرويج إذا اعتبرنا كل ملتح إخوانيا.

سألته عن بوابة الدخول إلى الشرفة العامة فقال لي «لا توجد جلسة الآن. عقدت جلسة قصيرة اليوم. لكن هناك جلسة غدا الساعة 10 صباحا». وأشار إلى البوابة التي عدت منها للتو.

حرصت على أن أصل المكان الساعة العاشرة. وجدت قبلي حوالي 50 شخصا أغلبهم شباب يبدو أنهم طلبة وتلاميذ. الكل يتحدث النرويجية ويبدو أنهم يعرفون ما الذي يأتون إليه بخلافي أنا الذي أقمن فقط. حرصت على أن أكون الأخير باعتباري مثل الطفيلي الذي تبع جماعة ظنا أنهم يسيرون إلى حفل بينما هم يتوجهون إلى مجلس الحاكم ليحكم عليهم.

كلمني موظف الأمن بالداخل بالنرويجية فلما رآني لا أفقه شيئا تحول إلى الموجة الإنجليزية. طلب أن أضع هاتفي مغلقا في جيب المعطف وأترك المعطف عندهم مقابل وصل «المعاطف دائما تترك في مداخل الإدارات والمنشآت في البلدان الباردة».

اجتزت بوابة كشف المعادن. لم يطلب أحد بطاقة تعريف. فمن حق العموم وليس المواطنين فقط حضور جلسات مجالس النواب في كثير من بلدان العالم.

قاعة الجلسات ليست بالفخامة الكبيرة ويبدو أنها لا تتوفر على قبة. كانت الجلسة قد بدأت. مقاعد النواب على شكل أنصاف دوائر تتسع كلما ابتعدت عن مركز القاعة.

اخترت في الشرفة موقعا يواجه رئيس الجلسة. أمام الرئيس على اليمين وقفت سيدة على منبر خشبي وأمامه إلى اليسار منبر آخر تناوب عدد كبير من النواب على استخدامه لتوجيه أسئلة إلى السيدة التي ظلت تجيبهم لساعة ونصف تقريبا وهم يعقبون عليها ضمن إطار زمني لا يتجاوز دقائق لكل تدخل. تشير مصابيح حمراء إلى قرب نهاية الوقت وعندما تنطفئ يطرق الرئيس بشكل خفيف على مكتبة.

كلما أراد الرئيس الحديث يقف ولا يتحدث أبدا جالسا. وهو يذكر اسم المتدخل التالي من النواب في وقت يكون النائب فيه قد بدأ التوجه إلى المنبر فيما يبدو أنه ترتيب مسبق ومضبوط.

الحديث هادئ إلى حد إثارة الملل. ولأني لم أكن أفهم شيئا مما يقال فقد انشغلت

بمراقبة النواب وسلوكهم فقد كان الموقع من الشرفة مناسبا لذلك تماما.

كان الحضور حوالي 40 نائبا. وعلى ما يبدو فإن أغلب النواب لم يحضروا أو أن بعض النواب يأتي ويذهب لأن حركة الدخول والخروج لم تتوقف.

النواب يشعرون بالملل الشديد، فقد أحصيت 17 منهم مشغولين بهواتفهم وأجهزة الآي باد.

نائبة كانت تحت شرفتي كانت تلعب الكاندي كراش لبعض الوقت.

وبينما كانت الأسئلة والأجوبة تتواصل بطريقة رتيبة وسلسة كان عدد الحضور من الجمهور يتقلص حتى وصل بنهاية الجلسة إلى خمسة كنت أحدهم.

قدرت أن الموضوع ربما يكون مملا وأن السيدة ربما تكون وزيرة الثقافة أو الصيد البحري.

لكن عندما عدت إلى الفندق راجعت موقع البرلمان فوجدت أن السيدة هي (إيرنا سولبورغ) الوزيرة الأولى. وهذا رابط فيديو الجلسة لمن يريد أن يرى طريقة عمل برلمان الدولة الأكثر ديمقراطية في العالم. وأن ذلك شيء ليس بالمستحيل[19].

جامعة أوسلو وجامعة الرباط

السياسة اللغوية لجامعة أوسلو ، عاصمة النرويج، نموذج جيد، يستحق منا تأملا ومناقشة.

فهو يقدم قواعد واضحة متناسقة مع المصلحة، تحمي اللغة الوطنية بدون استبعاد للغات الأجنبية.

[19] https://www.stortinget.no/no/Hva-skjer-pa-Stortinget/Videoarkiv/Arkiv-TV-sendinger/?mbid=/2015/H264-full/Storting/11/04/Stortinget-20151104-095632.mp4&msid=208&meid=9696 .

ويمكن استخدام أفكاره قاعدة لمناقشة السياسة اللغوية في الجامعات المغربية:

- القواعد منشورة في صفحة مخصصة لها في موقع الجامعة تحت عنوان "إرشادات حول السياسة اللغوية لجامعة أوسلو "

- الإرشادات موضوعة لتستخدم في إطار خدمة وضع الجامعة باعتبارها مؤسسة بحث عملي على مستوى عالمي

- تدعم الجامعة ما يسمى "الثنائية اللغوية" التي تجعل النرويجية اللغة الأساسية في الجامعة، وتشجع في الوقت نفسه التعدد اللغوي مع اعتبار الإنجليزية اللغة الأجنبية الأساسية.

- تلتزم الجامعة بقانون استخدام اللغة في الإدارة المدنية.

الأهداف الأساسية للسياسة اللغوية:

- تحسين استخدام النرويجية عموما والمصطلحات التقنية بالنرويجية خصوصا

- تستخدم الإنجليزية أو لغة أجنبية أخرى حين يكون ذلك مناسبا ولازما لأسباب دراسية

- تعتبر إجادة اللغة في التدريس والتواصل الأكاديمي جزءا من النتائج التعليمية المطلوبة

التدريس:

- اللغة النرويجية هي لغة التدريس الأساسية

- يتوقع أن يكون الطلبة قادرين على استخدام المصطلحات التقنية بالنرويجية وبالإنجليزية أو لغة أجنبية أخرى. ويعفى الطلبة الأجانب في الأقسام الدولية من شرط النرويجية

- لا يمكن إجبار الطلبة على استخدام الإنجليزية أو لغة أجنبية أخرى في التدريس والامتحانات إلا إذا كانت جزءا من المقرر، ومحددة في وصف المادة.

- الطلبة والموظفون الأجانب يجب أن يتلقوا دروسا في النرويجية

المنشورات والمعلومات:

- يجب أن تكون المنشورات والمعلومات باللغة المناسبة للجمهور المستهدف

- يجب أن يتضمن موقع الجامعة على الإنترنت معلومات يسهل الوصول إليها بالإنجليزية

ولمقارنة السياسة اللغوية لجامعة أوسلو[20] بالسياسة اللغوية لجامعة الرباط، دخلت موقع رئاسة جامعة محمد الخامس[21]، فوجدته متاحا بواجهة فرنسية فقط. ولم يرد في الموقع أي شيء عن السياسة اللغوية. ربما يكون السؤال لديهم: ما السياسة اللغوية؟

بأي النرويجيتين تكتب؟

لنتخيل تكليف وزارة داخلية من أحد بلدان المغرب الكبير بحل هذا المشكل:

لغة لديها صيغتان مختلفتان للكتابة، وليس لها طريقة موحدة للنطق والحديث وإنما يتكلم المتحدث بلهجته المحلية. ومجموع من يتكلمون هذه اللغة لا يزيد على 5 ملايين. ما العمل؟

أتصور أن الوزير سيقول "سي كوا صا[22]؟" ويصدر قرارا صارما باعتماد الفرنسية أو الإنجليزية بدل هذه الفوضى اللغوية.

يتعلق الأمر باللغة النرويجية. فهي تتوفر على شكلين كتابيين رسميين هما (لغة الكتب Bokmål) و(النرويجية الجديدة Nynorsk). ويوجد شكلان لغويان آخران لكتابة النرويجية يستخدمان في نطاق محدود من طرف الأكاديمية النرويجية وفي الأوساط الأدبية والتعليمية.

فشلت محاولة دمج النوعين الكتابيين. وتم إقرارهما رسميين متساويين قانونيا في قانون اللغة لسنة 1930، مع مراعاة المنتج والمتلقي في اختيار نوع الكتابة المستخدم.

يتم تطبيق القانون بشكل دقيق. فالمؤسسات الحكومية وكل الإدارة المدنية مطالبة بإجابة المراسلات بنفس لغتها (أحد الشكلين النرويجيين). وأن تكون المطبوعات التي تعدها مراعية للغة

---

20 . موقع جامعة أوسلو http://www.uio.no/

21 . موقع رئاسة جامعة محمد الخامس الرباط http://www.um5.ac.ma/

22 . عبارة C'est quoi ça? فرنسية معناها (ما هذا؟)، و القصد هنا أن الموظفين في وزارة الداخلية في الغالب يتواصلون بالفرنسية.

الأكثر استخداما في المنطقة التي تخاطبها.

أما لغة الحديث فكل شخص يمكنه الحديث بلهجته المحلية من النرويجية. وليس هناك لغة متكلمة معيارية واحدة. واللهجات مفهومة في كل النرويج، بل يستطيع السويديون والنرويجيون والدانمركيون فهم بعضهم بعضا بدرجة لا بأس بها.

وقد كنت كتبت كل هذا من خلال قراءة نصوص القانون والشروح الواردة حول الموضوع في موسوعة ويكيبيديا، وبالتالي فإني أتحدث عن أمر لم أخبره بشكل مباشر. ولذلك طلبت ممن عنده معرفة بالنرويجية تنويرنا بالمزيد حول هذه الحالة اللغوية العجيبة.

ربما حينها نحمد الله على أن كل العالم العربي، حافظ برغم القطيعة والمسافات، على قواعد كتابة موحدة، وعلى لغة حديث فصيحة واحدة.

وقد وضح نوفل بن إبراهيم، وهو تونسي مقيم في النرويج الصورة أكثر: "لغة البوكمول هي لغة حوالي 87 % من البلديات أو ربما اقل، لست أذكر النسبة بالضبط. وباقي البلديات لغتها الرسمية النى نورسك. وهما في الحقيقة متقاربتان جدا بل هما عبارة عن لهجتين. و سبب تواصل الخلاف بين دعاتهما هو أن لغة البوكمول هي في الحقيقة لغة الدنمركيين الذين استوطنوا النرويج منذ قرون لان النرويج كانت تتبع الدنمرك طيلة أكثر من خمسة قرون، ثم سلمتها الدنمرك للسويد بعد خسارتها للحرب مع نابليون حليف السويد وبعد أقل من 90 سنة من تبعيتها للسويد استقلت وهنا أراد مثقفوها كتابة لغة خاصة بهم تختلف عن الدنمركية التي كانت هي اللغة الرسمية - علما أن الخلاف بين اللغات الاسكندنافية هو خلاف لهجات فهي عبارة عن لهجات - فهنا قاموا باختيار لغة أوسلو وضواحيها ومناطق أخرى كان يكثر فيها ذوو الأصول الدنمركية فخرجت لغة البوكمولأقرب إلى الدنمركية وهنا احتج الوطنيون ليقوم بعضهم لاحقا بالدعوة إلى لغة النينوشك أي النرويجية الجديدة التي تم جمعها من لغة الفلاحين في وسط النرويج. والمتحمسون للغة الأخيرة يتهمون اللغة الأخرى بأنها لغة الدنمركيين. وإلى جانب هاتين اللغتين توجد لهجات كثيرة في النرويج يعسر على أغلب النرويجيين فهم بعضها. كما توجد لغات أقليات تعيش في الشمال لا داعي لذكرهم هنا. وباختصار فان النرويجي يمكنه فهم السويدية والدنمركية فالخلاف بين هذه اللغات هو مثل الخلاف بين لهجات المغرب العربي مع ضرورة الإشارة إلى أن الدنمركية أقرب

إلى النرويجية في الكتابة وبالذات إلى لغة البوكمول, وأما نطقا فإن نطقها بعيد عن النرويجية لذلك يصعب علي شخصيا فهم الدنمركي إن تكلم إلا بصعوبة ولكني أفهم الكتابة الدنمركية وأما السويدية فهي أقرب نطقا إلى النرويجية"

وللتوضيح يقارن نوفل حالة اللهجات النرويجية بالمغرب "أخي حتى تفهم الأمر أكثر أمثل لك بالوضع في المغرب فلغة البوكمول هي مثلا لو جاء أحدهم وقال سوف أعد لغة مغربية فجمع كلام سكان الرباط أو فاس وقال هذه هي لغة البوكمول ثم احتج عليه أناس آخرون وجاءوا بلهجات قلعة السراغنة وما جاورها وقالوا هذه لغة المغرب الجديدة. فالناطقون بكلا اللغتين يفهمون بعضهم بعضا ويفهمون اللهجات العربية الأخرى المختلفة في المغرب. هذا هو واقع اختلاف اللغات واللهجات النرويجية."

وأضاف نوفل "تسعى الدولة النرويجية بكل ما أوتيت من جهد إلى تعليم المقيمين في النرويج اللغة النرويجية عبر الدروس المجانية المكثفة المفروضة على اللاجئين والمقيمين الراغبين في الحصول على الإقامة الدائمة وذلك لخوف الدولة من عدم ذوبانهم في الثقافة النرويجية وفي المقابل نجد دولا مثل دول الخليج قد هيمنت عليها لغات أخرى حتى صارت اللغة العربية أجنبية كما يحكى عن دبي مثلا وفي زيارتي للمنامة عاصمة البحرين قرأت قبل زيارتها أن الإنجليزية مستعملة على نطاق واسع فلم أصدق حتى عشت ذلك في شوارعها فحتى بوليس المرور لا يعرف العربية ويحدثني بالإنجليزية وحدث ولا حرج عن عملة الفندق."

العب مع الدارجة يا عيوش

بداية القرن العشرين عملت عدة جهات في النرويج على وضع نظام للغة معيارية مكتوبة بناء على اللهجات المحلية. نتج عن ذلك وجود أربعة أنظمة كتابة، اثنان منها رسميان ويعلمان معا للتلاميذ في المدارس ويستخدمان في الإدارة.

ووجود أكثر من نظام إملائي يضع عبئا إضافيا على الطلاب والتعليم والإدارة. ولكن لا مفر منه لأن البلديات المستخدمة لكل نظام متمسكة به.

واستمرت اللهجات المحلية كما كانت ولم تنجح محاولة توحيدها أو جعلها مساوية

للنموذجين الكتابيين بشكل كامل.

الثلاثية اللغوية في لوكسمبورغ

وصلت مطار شارلوروا جنوب بروكسيل حوالي منتصف الليل نهاية شهر مارس 2015. ومن هناك أخذت الباص إلى لوكسمبورغ ووصلت إليها قبل الفجر.

كنت حجزت الفندق لليوم التالي، فكان علي أن أمضي الوقت حتى الضحى أو الظهيرة في التجوال.

تبعت خريطة غووغل حتى مسجد غير بعيد من محطة القطار. صلينا الصبح ثم اكتشفنا أن التوقيت تمت زيادته بساعة مع منتصف الليل وأننا صلينا قبل الوقت، فأعدنا الصلاة.

كان من الطريف أن الجماعة لم ينتبهوا إلى أن التوقيت تغير. وهذا من آفات الهواتف الذكية. فهي تتصرف من تلقاء نفسها.

بعد الصلاة ذهبت إلى مركز المدينة. وكانت فرصة لأختبر حياة التسكع الليلية. اتخذت مطعم ماكدونالد يفتح على مدار الوقت مكانا للاستراحة. لكن مقاعده صممت بحيث تصبح مؤلمة ومؤذية بعد نصف ساعة من الجلوس. فكنت مضطرا لمغادرته والتجوال في الشارع من حين لآخر.

لغة لوحات ومطبوعات المطعم هي الألمانية وحدها. وهو أمر أثار استغرابي، بالنظر إلى أن الفرنسية موجودة بشكل واضح في محلات أخرى وفي اللوحات والإشارات في الشارع.

وزادت حيرتي خلال الأيام الموالية. فأغلب الناس يتكلمون اللغة اللوكسمبورغية، وهي لغة متفرعة عن الألمانية. ومع ذلك تجد المعلومات في الأماكن السياحية متوفرة بالفرنسية والألمانية إلى جانب الإنجليزية.

والبرلمان الذي حاولت زيارته وكان مغلقا بسبب عيد الفصح يعمل بالفرنسية وموقعه على الإنترنت متوفر بها وحدها.

الحالة اللوكسمبورغية متفردة في وجود مثلث لغوي يتعايش جنبا إلى جنب وتستخدم كل

لغاته وفق ترتيب نص عليه قانون اللغة.

فاللغة اللوكسمبورغية هي اللغة الوطنية. وقد رقيت خلال القرن العشرين من مرتبة اللهجة إلى مرتبة لغة يمكن أن تستخدم في الكتابة. وهي اللغة المستخدمة مع الأطفال في الحضانة وروض الأطفال. على الأقل فيما يخص الغالبية من السكان.

وتتمتع اللغتان الفرنسية والألمانية بوضعية لغتين رسميتين.

الفرنسية هي لغة التشريع وبها يعمل البرلمان وتصدر القوانين. بحيث لا يوفر البرلمان واجهة ألمانية أو لوكسمبورغية (ولا حتى إنجليزية).

الإدارة تعمل باللغات الثلاث وهي ملزمة بأن تجيب مراجعها باللغة التي استخدمها معها على سبيل المساواة.

ومع كون اللوكسمبورغية اللغة الوطنية فإن المواقع الحكومية على الإنترنت لا توفر واجهة بها. وإنما هي متوفرة بالألمانية والفرنسية إلى جانب الإنجليزية.

حضور اللغات الثلاث في التعليم حالة عجيبة، لا أدري إن كان لها مثيل في أي بلد آخر.

ففي الحضانة وروض الأطفال يتم تعليم اللوكسمبورغية ليتمكن منها الطفل بغض النظر عن المجتمع اللغوي الذي ينتمي إليه. ثم تأتي الألمانية في الابتدائي لتصبح الفرنسية لغة التدريس الأساسية في الثانوي.

والتفاوت في تدريس اللغات للطفل وسيلة لتحسين ضبطه للغات التي يدرسها. وتخفف عليه من ضغط تلقينه لغات عدة في الوقت نفسه ومن سن مبكرة كما يحدث في بعض المدارس الخاصة المغاربية التي تفخر بأنها تدرس الطفل العربية والفرنسية والإنجليزية وهو بعد لم يبلغ سن السادسة من العمر.

يصعب فهم الحالة اللوكسمبورغية بدون دراسة تفصيلية. وعلى كل حال فالاختيارات اللغوية صنعت بشكل محلي وتوافقي، قبل فيه المجتمع واقع الثلاثية اللغوية وحوله إلى نقطة قوة جعلت لوكسمبورغ منطلق التصالح بين فرنسا وألمانيا ومكان انطلاق فكرة الاتحاد الأوربي. كما

ساهمت في تحويلها إلى مركز مالي وخدماتي بدخل فردي يعد الأفضل في أوربا.

اليونانية قبل الانجليزية

في طائرة خطوط رايان من لندن إلى أثينا كان إلى جانبي رجل يوناني في حضنه بنته الرضيعة وعمرها 16 شهرا، اسمها "أرياذني".

كان يسافر بها لرؤية جدها قبل عيد الفصح المسيحي. بينما بقيت أمها في لندن حيث تقيم العائلة بسبب التزامات العمل.

قال إنه يستخدم اللغة اليونانية حصريا في الحديث إلى بنته وإن زوجته تفعل نفس الشيء. والهدف من ذلك أن تعي اليونانية باعتباره لغتها الأولى قبل أن يبدؤوا تعليمها الإنجليزية، لغة بلد الإقامة.

ومن أجل هذا الغرض قال ريكوس إنه توقف عن ترديد أغاني أطفال إنجليزية لابنته أرياذني مخافة أن تختلط لديها الإنجليزية باليونانية، لغتها الأم. وأصبح يحصل لها على أغاني أطفال باليونانية من يوتيوب.

ويبذل ريكوس مجهودا خاصا للحصول لابنته على كتب أطفال وألعاب تستخدم حروفا يونانية.

الطفلة الصغيرة بالكاد بدأت تنطق بعض الكلمات ومع ذلك فريكوس يتحدث عن مسألة اللغة الأم باهتمام وحسم ويحدد قواعد سلوك واضحة تجاه هذا الأمر باعتبار تنشئة بنته على لغتها الأم أمرا لا يقبل أي نقاش نفعي. القضية قضية هوية.

ذكرني ريكوس ببعض الآباء في المغرب الكبير ممن يحرصون على مخاطبة أبنائهم باللغة الفرنسية حصريا وذلك حتى ينشؤوا وقد أحسنوا لغة يظنون أنها تفتح للأبناء آفاق التفوق والرقي الاجتماعي والثروة. ليتهم استمعوا للبرلمانية الفرنسية التي ربطت اللغة بالعقيدة في تهجمها على برنامج وزارة التعليم الفرنسية في تدريس العربية كلغة ثانية أو ثالثة في بعض المدارس[23].

[23] https://www.youtube.com/watch?v=GcrhstmdqjM .

الطب بالأيسلندية

بحثت في موقع كلية الطب الوحيدة في أيسلندا عن لغة التدريس المعتمدة علي أجد بلدا أو ربيا يشابهنا في ترجيح لغة أجنية على اللغات الوطنية في التدريس.

أيسلندا عندها شروط مثالية لاختيار التدريس بالإنجليزية. فسكانها 330 ألف فقط. وهو عدد من يتكلم اللغة الأيسلندية. وهذا يعادل عدد سكان العيون وبوجدور في الصحراء مثلا.

تتوفر الكلية على واجهة لموقعها على الإنترنت بالإنجليزية. وفيها رابط "مواد تدرس بالإنجليزية".

نقرته بتوقعات عالية. ولكن خاب ظني. من بين 276 مادة تدرس في التخصصات المختلفة توجد 7 مواد تدرس بالإنجليزية منها "مدخل لتقنيات الكتابة" و"تقنيات البحث" و"الإحصاء" و"الخلايا الجذعية"

والباقي 269 مادة تدرس بالأيسلندية.

يا للهول! كيف يتم تدريس "تطبيقات علم الأشعة في علاج السرطان" و"الممارسة العيادية" و"نظرية علاج أمراض النطق" و"فيزيولوجية الخلايا" بلغة لا يتكلم بها ما يصل لعدد سكان حي من الدار البيضاء؟

ضاعت فرصة طلبة أيسلندا في البحث العلمي!

لغز لطلبة الطب في المغرب: ما اسم القمحدوة بالفرنسية؟

لغة ثلاثمائة ألف شخص

هل نتوفر على نصوص قانونية توضح السياسة اللغوية لبلداننا؟

هذه نصوص من قانون اللغة الأيسلندية. تصف السياسة اللغوية لهذا البلد الجزيرة الذي لا يزيد عدد سكانه على 330.000 نسمة، أي ما يعادل عدد سكان مدينة صفاقس بتونس:

على الدولة والحكومات المحلية مسؤولية المحافظة على اللغة الأيسلندية وتقويتها. والتأكد من استخدامها. ويجب عليها التعاون مع مجلس اللغة الأيسلندية في وضع السياسات اللغوية.

يقدم مجلس اللغة الأيسلندية المشورة للسلطات في القضايا المتعلقة بالتعليم ويصوغ توصيات للوزير الأول حول السياسة اللغوية حول الاستخدام السليم للغة الأيسلندية في المجال العام.

الأيسلندية لغة البرلمان والحكومة والحكم المحلي والتعليم بكل مستوياته والمؤسسات التي تقوم بأنشطة وتقدم خدمات عامة.

الأنشطة التي تتم على مستوى الدولة والحكومات المحلية أو بتكليف منها، يجب أن تكون بلغة جيدة، سهلة الفهم ومحددة.

على السلطات اتخاذ إجراءات تهدف للتأكد من أن الرصيد اللغوي للأيسلندية في المجال التقني يتحسن تدريجيا بشكل متاح للجمهور ومستخدم على أو سع نطاق.

الأيسلندية هي اللغة الرسمية لأيسلندا على المستوى الدولي[24]

الخطوط الجوية تعتز باللغة الوطنية

كأس القهوة على طيران أيسلندا يعلم الراكب كلمة أيسلندية ويقوم بالدعاية للحامات الطبيعية في البلد.



[24] . http://www.deaf.is/english/status-of-icelandic-sign-language/ مراجع يوم 16 مايو2016

الدراسة بالأيسلندية والمراجع بالإنجليزية!

سألني الشاب بالأيسلندية مشيرا إلى الكرسي إلى جانبي في المقهى المكتبة، فهززت رأسي فأنا لا أعرف من هذه اللغة إلا ما يعرفه عالم الاجتماع الطوزي عن مقامات الحريري. ترجمت فتاة ترافق الشاب بسرعة للإنجليزية "هل المكان خال؟"

وضع الشاب أمامه كتابا ضخما يفيد عنوانه الإنجليزي أنه يتعلق بالصيدلة. و وضعت الفتاة كتابا أضخم عنوانه "علم النفس" بالإنجليزية أيضا.

استفدت من الفرصة بسرعة لبدء الحوار التقليدي:

- هل أنتما طالبان؟

- نعم

- إذا سمحتما، ما هي لغة الدارسة في الجامعة؟

- ندرس بالأيسلندية. كما ترى المراجع كلها تقريبا بالإنجليزية. لا يمكننا ترجمة المراجع كل سنة لأن نسخا جديدة تصدر و بالتالي سيضيع الجهد. لذلك نستخدم المراجع الأصلية. لكن الأستاذ يشرح بالأيسلندية و النقاش في القسم يكون كذلك بها. يعد الأساتذة عروضا تقديمية بالأيسلندية و يستعينون بها. و الامتحانات دائما بالأيسلندية. ما هي لغة التدريس في بلدك؟

- أأأأأأ .... لغتنا هي العربية. لكن ندرس في الجامعات بالفرنسية.

- لم؟

- يقولون إنها لغة المراجع العلمية.

- هل هي لغة وطنية في بلادك؟

- لا

- هل تدرسونها من الصغر و تجيدونها

- آآآآآآآ.... بعض الشيء

لست متأكدا هل كانت نظرة الفتاة نظرة تعاطف أو نظرة احتقار.

أنهيت النقاش لأشرب قهوتي قبعة الصيني بدون لاكتوز و آكل "بيجلا[25]" صغيرا بالحمص و السلمون.

[25] . المقصود رغيف صغير يسمى bagel يقترح غووغل ترجمة "كعك" له.

الفرنسية تخاف من الإنجليزية

سمعت اللكنة الكيبيكية لأول مرة في بهو فندق في ستوكهولم. ما هذه اللغة الغريبة؟ بالكاد يمكن تمييز أنها فرنسية بسبب شدة انحراف أصواتها عن الفصاحة الباريسية التي عذبونا في المدارس الابتدائية لنتقنها.

عدت ليوتيوب واستمعت لنماذج من نطق الكيبيك الغريب. يمكن للكيبيكيين أن يجعلوا متكلم الفرنسية لا يفهم ما يتحدثون عنه لو أرادوا. وخصوصا سكان وسط وشمال الإقليم الناطق بالفرنسية.

لكني فوجئت أكثر حين وجدت كنديين من كيبيك غير قادرين على التواصل مع مواطنيهم في الأقاليم الناطقة بالإنجليزية. وهم لا يشعرون بأي حرج تجاه ذلك. "نعم، نحن نتعلم الإنجليزية في المدارس" يوضح كيبيكي، ويضيف "ولكنها ليست مهمة" ربما المكان الوحيد الذي يمكن أن تسمع فيه أن الإنجليزية غير مهمة هو كندا!

الإنجليزية هي لغة الأغلبية في كندا. وفي الولايات المتحدة التي توجد على الحدود الجنوبية للإقليم. والمنطق يقول إنه كان على الكيبيكيين التحول للعمل والتعليم بالإنجليزية باعتبار ذلك يفتح آفاقا أفضل أمام أبنائهم في التعليم العالي والعمل في الأقاليم المجاورة.

ذلك منطق يستبعد عنصر الهوية. والهوية تَرْجِحُ ما سواها وتقضي عليه.

فبدلا من الاحتفال بالانجليزية ينظر الكيبيكيون ومؤسساتهم الحاكمة للغة الأولى في العالم وفي كندا باعتبارها مهددا للغة والهوية الفرنكفونية لما كان قبل قرنين "فرنسا الجديدة".

وتعمل مؤسسات عديدة في الإقليم على حماية الفرنسية ومراقبة استخدامها في كل أنشطة الحياة في الإقليم. ويعد الخطأ في استخدام الفرنسية في التواصل العام والمؤسسات التجارية وغيرها مخالفا للقانون. ويوجه المواطنون شكايات لما يطلق عليه تهكما "شرطة اللغة" للتدخل والتصحيح.

ازدواجية اللغة في الريف

تتجلى ظاهرة ازدواجية اللغة بأشد أشكالها وضوحا في مظاهرات الريف.

فالمظاهرات التي تخرج في القرى والمدن حرة في استخدام اللغة التي تريد. ولا يوجد أي إملاء عليها. بل إن لدى المشاركين حافزا قويا لاستخدام لغتهم الأم أي الأمازيغية الريفية تعبيرا عن الاعتزاز بالهوية ولأنها أسهل وسيلة يمكنهم بها التعبير عن رأيهم بشكل واضح وقوي.

لكن يلاحظ حضور العربية، اللغة الثانية للمشاركين في المسيرات، ولسكان المنطقة بشكل عام، في شكليها الدارج والفصيح.

فاللافتات في عمومها مكتوبة بعربية فصحى. والشعارات تتنوع بين الريفية والعربية الدارجة والفصحى.

وتجد المتحدث يتنقل بين هذه الأشكال اللغوية الثلاثة بشكل سلس وربما بدون قصد أو انتباه، بحسب ما تقتضيه الفكرة التي يعبر عنها، والجمهور الذي يخاطبه.

الازدواج اللغوي كثير في العالم، وخاصة في أقاليم تشكل أقليات داخل أغلبية لغوية.

ومثالها كاتالونيا بإسبانيا، حيث يتحدث كل السكان اللغة القشتالية (الإسبانية) ويتحدث نصفهم الكاتالانية.

تم اعتماد اللغتين رسميتين في الإقليم. وتم تمييز الكاتالانية بما يضمن حياتها واستمرارها وتشجيع استخدمها في كافة المجالات. ولكن بدون التضييق على استخدام القشتالية. وترك اختيار لغة التدريس لآباء التلاميذ، وتم توفير مسارين يستخدمان اللغتين مع ضرورتهما معا كمادتين دراسيتين في كلا المسارين.

أي التلميذ الذي يدرس المواد بالكاتالانية يدرس الإسبانية كمادة، والذي يدرس المواد بالإسبانية يدرس الكاتالانية كمادة دراسية.

وتم توجيه موارد إدارات الثقافة والإعلام لدعم اللغة المحلية بدل إنفاقها على لغات أجنبية كما يحصل في بلدان المغرب الكبير مثلا.

الازدواجية اللغوية موجودة بنفس الطريقة تقريبا في إقليم الباسك و جاليثيا. حيث توجد اللغتان المحليتان مع الإسبانية في إطار يميز اللغة المحلية بدعم رسمي من حكومة الإقليم دون المس بحرية السكان في استخدام اللغة الوطنية.

وتعتبر حالة لوكسمبورغ أكثر غرابة فهناك ثلاث لغات يتحدثها السكان وحجز لكل منها مجالها الخاص، وهي لغة التواصل الشفوي والتعليم الأولي: اللوكسمبورغية، ولغة الإعلام والصحافة وهي الألمانية ولغة التشريع والقضاء وهي الفرنسية. مع وجود الألمانية والفرنسية جنبا إلى جنب في الإدارة دون إقصاء لأي منهما.

ويمكن لكل إقليم مزدوج اللغة الاستفادة من هذه التجارب. وقد قامت ويلز، وهي أحد البلدان المكونة لبريطانيا، بطلب تقرير حول التجربة اللغوية في الباسك للاستفادة منها في وضع سياساتها اللغوية.

وحالة ويلز توجد فيها الإنجليزية التي تعد لغة أما للجميع مع الويلزية التي تتكلمها أقلية تريد الحفاظ عليها وتنمية استخدامها.

الازدواجية اللغوية تعني وجود لغتين بدون عداء. بل بتقبل وجودهما معا باعتباره واقعا لا يمكن نفيه. ويمكن داخله تمييز اللغة المحلية أو اللغة الأم بإجراءات تضمن حمايتها وترقيتها دون المس بالفرص التي تتيحها اللغة الوطنية الأكثر انتشارا للسكان تعليميا وإداريا وفي مسارهم المهني.

وفي جميع الحالات يجب إغلاق الباب أمام اللغات الفضولية، فهي لا يمكن أن تقدم بديلا عن اللغات الوطنية.

الفرنسة إجبارية

المغرب في حاجة لقانون مشابه لقانون اللغة في كيبيك لحماية العربية والأمازيغية:

- يمنع اشتراط معرفة بلغة أخرى غير الفرنسية إلا للمهمات التي تتطلب ذلك،
- على المشغل أن يتواصل مع المستخدم ويعطيه التعليمات بالفرنسية ،

- كل مقاولة تشغل أكثر من 500 شخصا ملزمة بالتسجيل في (مكتب اللغة الفرنسية الكيبيكي) لإنجاز تحليل للوضع اللغوي للمقاولة، وذلك لفرنسة العمل والتواصل فيها على كل المستويات.[26]

حتى لا تتراجع الفرنسية

وتجيب صفحة السياسات اللغوية على موقع الحكومة الكيبيكية "لماذا التمسك بالحق في العمل باللغة الفرنسية ونحن نعيش في أميركا الشمالية (كيبيك)؟":

حتى لا تنحصر الفرنسية في المجال الخاص وحده، ومن أجل أن يكون تعلمها واستخدامها مغريا ومفيدا، يجب أن لا ينحصر استخدامها في مهمات متدنية.

يجب أن تمكن الفرنسية متكلمها من الوصول إلى مناصب مجزية، ولمواقع مسؤولية، وأن تصبح أداة لا غنى عنها في مجال العمل في كيبيك.

وإلا فإن فائدتها وجاذبيتها ستتراجع بسرعة لفائدة الإنجليزية، وذلك بشكل خاص بين الأشخاص الذين يفدون للإقامة في كيبيك.

صفحة السياسات اللغوية على موقع الحكومة الكيبيكية

نحن لا نخدم أصحاب الإنجليزية

- من فضلك أريد تذكرة يوم كامل!

خاطب الكهل (مايكل دانين) موظف شركة المترو في مكتب بيع التذاكر بإحدى محطات مونتريال، كبرى مدن إقليم الكيبيك بكندا.

مايكل تكلم بالإنجليزية، لغته الأم، في بلد تعد الإنجليزية لغة الأغلبية فيه.

- نحن لا نخدم أصحاب الإنجليزية!

---

[26] http://www.spl.gouv.qc.ca/languefrancaise/politiquelinguistique/faq/languedutravail/ .

أجاب الموظف بلغة إنجليزية فصيحة. ثم التفت إلى موظف ثان بجانبه وطفقا يضحكان ويشتمان من وراء زجاج الشباك.

امتعض مايكل، ذو55 عاما، من المعاملة المشينة. وهو سمع عن حالات تمييز تجاه الناطقين بالإنجليزية، لكنه لم يخبر من قبل سلوكا بهذه الوقاحة.

اتصل مايكل برقم هاتفي للشركة لتقديم شكاية، فأجابته موظفة قائلة: لسنا مجبرين على تكلم الإنجليزية. وأغلقت الخط في وجهه.

راسل مايكل شركة النقل مطالبا باعتذار وتعويض فأجابته معتذرة عما حصل. ولكن الشركة لا يمكن أن تؤاخذ موظفيها على سلوكهم اللغوي. فالفصلان 45 و46 من قانون اللغة الفرنسية بكيبيك يمنعان المشغل من إجبار موظفيه على التحدث بلغة غير الفرنسية في العمل. أو لوم الموظف لأنه لا يحسن لغة غير الفرنسية. ولا تستثنى من هذا الترتيب إلا الأعمال التي يتطلب إنجازها بالضرورة استخدام لغة غير الفرنسية.

كيبيك تنتصر للفرنسية

تعمَّمَ استخدام الفرنسية في إقليم كيبيك قبل فرنسا نفسها. فقد كانت الفرنسية الحالية لغة باريس ونواحيها وكان السكان في باقي المناطق يتحدثون لغات كثيرة مختلفة. لكن القادمين من فرنسا أو غيرها لكيبيك كانوا يجدون أنفسهم مضطرين لاستخدام الفرنسية لأنها اللغة المشتركة بين الجميع.

وهكذا لاحظ الرحالة خلال القرن الثامن عشر أنه "حتى المزارعون يتحدثون الفرنسية بطلاقة."

كانت كيبيك جزءا من "فرنسا الجديدة" وهو اسم المناطق التي سيطرت عليها فرنسا في شمال أميركا حتى انتزعها الإنجليز منها عنوة.

عانت الفرنسية من تراجع خطير خلال الحكم البريطاني بسبب استخدام الإنجليزية في المحاكم والإدارة، وعمل الكيبيكيين عند أرباب عمل كنديين إنجليز.

وظهرت لكنة تمزج بين الفرنسية والإنجليزية في المدن. بينما ابتعدت لكنة الفرنسية الكيبيكية بالتدريج عن الفرنسية الفصيحة.

انتبه الكيبيكيون للأمر. فحاربوا اللكنة المختلطة. وحرصوا على تعليم الفرنسية الفصيحة لأبنائهم وعلى نشر كتب النحو والصرف والقواعد.

وبالتدريج عادت اللهجة الكيبيكية للاقتراب من الفرنسية الفصيحة. ولم يحدث أبدا أن تمت محاولة تحويل اللهجة الكيبيكة إلى لغة مستقلة، باعتبار اللغة الفرنسية مكونا أساسيا من مكونات الهوية الكيبيكية.

ومن تعصب أهل كيبيك بكندا للغة الفرنسية أنهم يحرصون على سك مفردات جديدة للكلمات الإنجليزية المستحدثة.

وهم في ذلك يتجاوزون الفرنسيين. ويعتبون عليهم في قبولهم دخول كلمات إنجليزية إلى الفرنسية.

ومن ذلك أنهم ترجموا كلمة (إيميل) الإنجليزية التي تفيد "بريدا إلكترونيا" إلى (Courriel) وذلك بتركيب كلمتي "كوريي" وتعني (بريد) وإليكترونيك.

ويقوم (المكتب الكيبيكي للغة الفرنسية) وهو مؤسسة رسمية بالإشراف على السياسة اللغوية لإقليم الكيبيك ومراقبتها والفصل في الشكايات المتعلقة بها.

ومن مهمات هذا المكتب:

"الإشراف على أن تكون اللغة الفرنسية اللغة العادية والمعتادة للعمل والتواصل والتجارة والأعمال في الإدارة والمقاولات"

المتحدثون بالإنجليزية وهم الأغلبية في كندا يتضايقون ويسخرون من تعصب أهل الكيبيك للفرنسية وإهمال نسبة منهم لتعلم الإنجليزية أو ادعائهم عدم معرفتها. وهم ينكتون على مكتب اللغة الفرنسية بتسمية "شرطة اللغة".

انتشار وتعميم اللغة الفرنسية

حتى الثورة الفرنسية كانت لغات فرنسا كثيرة تختلف من إقليم لآخر. وكانت اللغة الفرنسية الحالية لغة البلاط ومنطقة باريس بشكل خاص.

قررت الجمهورية أن تكون الفرنسية لغة الإدارة والتعليم مع تجنب ترجمة القوانين والقرارات الإدارية إلى لغات فرنسا الأخرى ليكون الجميع مضطرا للتعامل باللغة الوطنية.

تم تهميش اللغات الجهوية بما فيها الباسكية والكاتالانية والألزاسية وغيرها مما أدى لتراجع عدد المتكلمين بها لفائدة اللغة الباريسية.

وتم استخدام "دمقرطة التعليم" لنشر الفرنسية باعتبارها لغة التعليم الوحيدة في المدارس التابعة للدولة.

ولم يتم إدخال "لغات اللهجات" للتعليم إلا خلال حكومة فيشي التي استسلمت للنازية الألمانية. ثم ألغي هذا الإجراء بعد تحرير فرنسا من الاحتلال.

وظلت اللغات الجهوية مهملة في فرنسا مع تحسينات بسيطة من ذلك الحين.

وكانت فرنسا وقعت على "الميثاق الأوروبي للغات الإقليمية أو لغات الأقليات" ولكنها لم تصادق عليه حتى الآن.

"لا أبيع بكنوز الدنيا لغتي وبلدي وحريتي"

بيت شعري ردده النائب الفرنسي بالجمعية الوطنية (بول مولاك) بلغة بروتون خلال مداخلة حول المصادقة على الميثاق الأوربي للغات الجهوية ولغات الأقليات بفرنسا.

واللغة البريتانية واحدة من اللغات الجهوية الكثيرة في فرنسا، والتي تراجع استخدامها بشكل كبير منذ الثورة الفرنسية بسبب سياسة الدولة في فرض لغة وطنية واحدة.

قال النائب في مداخلته إنه حتى الستينات كان يقال للمعلمين في منطقة بريتاني "مهمتك الأولى هي قتل اللغة البريتانية".

الميثاق المذكور تم رفض المصادقة عليه في مجلس الشيوخ بحجة أنه يهدد وحدة الأمة الفرنسية.

مداخلة النائب مرافعة قيمة في الدفاع عن الحق في تعلم اللغة الأم [27]

وانتهى النقاش برفض مجلس الشيوخ الفرنسي المصادقة على "الميثاق الأوربي للغات الجهوية ولغات الأقليات" في تصويت تم خلال أكتوبر 2015.

وجاء الرفض بعد 16 سنة من توقيع فرنسا على الميثاق سنة 1999.

وقد رفضت أغلبية الشيوخ المصادقة على الميثاق خوفا على "وحدة فرنسا".[28]

موقف لغوي مخز!

على الساحل الجنوبي من البحر المتوسط يوجد من يبيع لغته بدون مقابل، ويستبدلها بلغة المستعمر السابق، ويتحدث بها في المنتديات الدولية حتى حين يتكلم محاوره الأجنبي اللغة العربية!

و كثيرا ما يؤدي هذا إلى موقف مخز كما حصل في هذه الواقعة التي يرويها موقع العمق المغربي:

"اختار سفير روسيا بالمغرب، فاليري فوروبييف الحديث باللغة العربية خلال المنتدى المغربي الروسي الذي احتضنته الرباط مساء اليوم الثلاثاء، فيما اختار كل من وزير الفلاحة عزيز أخنوش ورئيسة الاتحاد العام لمقاولات المغرب مريم بنصالح بنشقرون اللغة الفرنسية.

وبدا السفير فوروبييف، سعيدا وهو يتحدث باللغة العربية، مشيرا إلى أنه اختار الحديث بها لأنها هي اللغة الأساسية، ومعبرا في نفس الوقت عن حبه للمملكة، التي وصفها بأنها أفضل بلد في العالم".

وقال السفير الروسي، إن "اليوم هو يوم تاريخي للعلاقات الدبلوماسية بين البلدين، حيث بزيارة رئيس الوزراء الروسي للمغرب سنبدأ في مرحلة جديدة من العلاقات، لأن هذه أول زيارة

---

[27] https://www.youtube.com/watch?v=4KL2U4thJvA .

[28] http://www.francetvinfo.fr/societe/le-senat-dit-non-a-la-charte-europeenne-des-langues-regionales_1712811.html .

له للمغرب.""[29]

تقرير غرفة التجارة بمونتريال عن الحالة اللغوية في كيبيك

كنت أقلب الكتب في رف خاص بالدراسات اللغوية في مكتبة مونتريال فأثار انتباهي تقرير أعدته غرفة تجارة المدينة عن "حالة اللغة الفرنسية و الحقوق اللغوية في كيبيك" سنة 1969، أي قبل اعتماد القانون رقم 1 الخاص بالفرنسية.

كيف تهتم غرفة التجارة بإعداد تقرير حول السياسة اللغوية؟ السبب هو أن غرفة التجارة تشتغل وتعمل في كل ما يفيد التجارة وتحسن أداء المقاولات في منطقة تمثيليتها. و السياسة اللغوية موضوع أساسي و له تأثير عميق على الأداء الاقتصادي.

إذا تمت السياسة و التخطيط اللغوي بشكل سليم فذلك يخدم التعليم والإنتاج والتجارة وكافة مجالات الحياة.

ينطلق التقرير من أن الحقوق اللغوية وكون اللغة الفرنسية عنصر هوية أساسي في إقليم كيبيك هي مسلمات لا تقبل المراجعة.

و يذكر عددا من الإشكالات التي لاحظتها لجنة التحقيق التي أعدته:

- ينظر إلى الفرنسية على أنها في مرتبة دونية مقارنة بالإنجليزية

- الإخلال بمبدإ المساواة في الفرص بسبب منح الناطقين بالإنجليزية فرصا أكبر للترقية و التقدم الوظيفي في المقاولات أكثر من إخوانهم الناطقين بالفرنسية وحدها.

- يوجد فرق واضح في مستوى العيش بين الناطقين بالفرنسية و الناطقين بالإنجليزية بسبب عدم تكافؤ فرص العمل والدخل مما يمكن أن يسبب اضطرابات مجتمعية.

و يخلص التقرير إلى اقتراح مجموعة من التوصيات، التي يبدو أن حكومات كيبيك و كندا أخذت بها بل وذهبت أبعد منها:

---

[29] https://m.al3omk.com/235539.html [11/10/2017] .

- أن تكون الفرنسية لغة العمل والتواصل في كل القطاعات بإقليم كيبيك

- أن يكون للآباء الحق في اختيار لغة التدريس لأبنائهم (لاحقا، أصبح لزاما على الآباء الناطقين بالفرنسية تسجيل أبنائهم في مدارس عمومية فرنسية أو اللجوء لمدارس خاصة ثنائية اللغة)

- استخدام الفرنسية في كافة القطاعات من تعليم وإعلام وثقافة وإدارة.[30]

فهل تنتبه غرف التجارة والصناعة في بلادنا إلى أهمية أن تدرس الحالة اللغوية في مناطق تمثيليتها وتأثير السياسات والتخطيط اللغوي الحالي على أداء أعضائها من تجار ومقاولات وأداء الاقتصاد بشكل عام؟ وهل تخرج لنا بتوصيات واقتراحات لتحسين التخطيط اللغوي بما يناسب كل إقليم ومدينة ويخدم الإنتاجية والتواصل وتكافؤ الفرص؟

الفرنسة ناجحة ومستمرة

أربعون سنة مرت على إقرار قانون 101 لحماية وفرض اللغة الفرنسية في كيبيك.

إجراءات القانون نجحت في فرض الفرنسية لغة عمل وتدريس وتواصل في الإقليم المحاط ببحر من المتحدثين بالإنجليزية.

منع القانون تسجيل أبناء الأسر الناطقة بالفرنسية في المدارس العمومية التي تدرس بالإنجليزية. وفرض فرنسة العمل في كل المقاولات الكبرى. وجعل مسألة اللغة مسألة محورية في السياسة العامة لحكومة الإقليم و حكوماته المحلية (البلديات).

الفرنسة نجحت في كيبيك لأنها سياسة دولة وإرادة مجتمع

وهي مستمرة ومفروضة بالقانون

---

[30] . مرجع الوثيقة لدى مكتبة كيبيك

http://www.cubiq.ribg.gouv.qc.ca/in/faces/details.xhtml?id=p%3A%3Ausmarcdef_0000737177&highlight=Auteur%3A+%26quot%3BDufour%2C+Andr%C3%A9%26quot%3B&posInPage=36&bookmark=5c428d19-32e9-4779-9df9-1b82613182b6&queryid=c685e4ae-ccff-4397-9797-dc039f67d348

في النقاش البرلماني والحكومي حول تقدم عملية الفرْنَسة في إقليم كيبيك، يتم التركيز على لغة الحديث في البيت بالنسبة للمهاجرين من غير الناطقين بالفرنسية أو الإنجليزية كلغة أم.

وينصب الاهتمام على تحسن نسبة من يتحولون إلى الحديث في البيت بالفرنسية باعتباره مؤشر نجاح للفرْنَسة واندماج المهاجرين، ولا يظهر في النقاش أي تعاطف أو اهتمام بالمحافظة على اللغات الأم للمهاجرين.

كل لغة يدافع عنها أهلها...... أو يخوننها.

خسارة. يذهب المغربي إلى كيبيك في كندا وهو يعد نفسه فرنكفونيا فيجد نفسه يصنف (ألوفونيا) لأن الفرنسية ليست لغته الأم وهي كلمة تقابل (عجمي) في العربية.

وقد استعار الكيبيكيون الفرنسيون الكلمة من أصلها اليوناني الذي يفيد (يتكلم لغة أجنبية) وجعلوا معناها (شخص يتحدث لغة غير رسمية في الإقليم الذي يقيم فيه).

الفَرْنَسَةُ مجهود عالمي منسق ومدعوم من عدد من كبير من الحكومات. وهي تشمل فرنسا نفسها ويعد إقليم كيبيك الفرنسي أحد قصص نجاحها الأساسية. وعدديا تعول عملية الفرنسة على إفريقيا لجعل الفرنسية أول لغة في العالم بحلول سنة 2050 (بإحصاء يفترض أن كل سكان الدول المفرنسة في إفريقيا سيتكلمون الفرنسية حينها).

صفحة ويكيبيديا الفرنسية الخاصة بالموضوع تشرح حالة الفَرْنَسَةِ بشكل مفصل بحسب البلد.

https://fr.wikipedia.org/wiki/Francisation

مجهود التعريب الفاشل يمكن أن يستفيد من تجربة الفَرنسة الناجحة.

الفرنسة أهم إنجازات برلمان كيبيك

رأيت بوابة عليها عبارة "مدخل الزوار" بمبنى برلمان كيبيك فدخلت و صادفت زيارة مرشدة على وشك البدء فشاركت بها.

المرشد شيخ ظريف قال إنه عمل بالبرلمان 19 سنة. صعدنا عبر سلالم فخمة إلى قاعة

الجلسات العامة و جلسنا في جانب من شرفة الجمهور بينما الشيخ يشرح طريقة عمل البرلمان.

برمان كيبيك خاص بالإقليم و هو غرفة واحدة تسمى الجمعية الوطنية. و أعضاؤه 125. و يعمل بطريقة مجلس العموم البريطاني فزعيم الأغلبية يصبح وزيرا أول و يتم اختيار أعضاء الحكومة من النواب مع محافظتهم جميعا على عضويتهم.

والملكة إليزابيث جزء من برلمان كيبيك فهي تصادق على القوانين عن طريق نائب حاكم كندا الذي يمثلها في الإقليم.

و لقب الملكة الرسمي في كندا هو "جلالة إليزابيث الثانية، بفضل الله ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا الكبرى وإيرلندا الشمالية، ملكة كندا وباقي ممالكها و أراضيها، رئيسة الكومونويلث و حامية الإيمان"

وقد ذكرنا الدليل بنبرة ساخرة بأن الملكة فوق القانون لأنها لا يمكن أن تخطئ.

ثم سأل الدليل: من معنا من أهل باريس؟ فأجابته سيدة. فقال: لنا عليكم فضل واحد على الأقل و هو أنا أعطيناكم كلمة (فابوتي) و قد استحدثها هذا البرلمان لما أراد منع تدخين السجائر الالكترونية داخله. وأخذتها فرنسا عنا. ومعنى الكلمة (بَخَّرَ). ونصح الدليل السيدة بأن تأخذ معها إلى فرنسا كلمة (كلافارداج) وتعني دردشة إلكترونية فالكيبيكيون رفضوا استعارة كلمة (تشات) الإنجليزية. لكن فرنسا فرطت واستعارتها.

ثم أشار إلى لوحة كبيرة فوق مكان رئيس المجلس لمشهد النواب و هم يناقشون في نهاية القرن الثامن عشر قضية لغة البرلمان. وليبين الفنان حدة النقاش نرى في اللوحة كرسيا مقلوبا وأوراقا ملقاة على الأرض وأغلب النواب وقوفا.

اختار المجلس هذه اللوحة للجلسة التي حسمت اعتبار الفرنسية واحدة من لغتي العمل في برلمان الكيبيك دون أن تكون أقل في الاعتبار من الإنجليزية لتكون شاهدة وحاضرة دائما على عمق الهوية اللغوية للإقليم وأنها أمر حاسم لا رجعة عنه و لا تفريط فيه.

ذكر الدليل أن النواب غارقون في العمل و أن منهم من يستقيل لشدة وطأة العمل عليه و على عائلته. فمهامهم التشريعية و الرقابية والشعبية كثيرة تجعلهم في غاية الانشغال بشكل دائم.

الفرنسية هي لغتكم في المغرب؟

سافرت من مدينة كيبيك إلى مونتريال عن طريق "المشاركة في السيارة" و هي صيغة شاعت في السنوات الأخيرة حيث يأخذ أحد الخواص مسافرين على نفس اتجاهه بمقابل محدد يكون عادة أقل من سعر القطار و الحافلة.

يتم الحجز على موقع إنترنت بعد اختيار مكان انطلاق و وصول مناسب و توقيت ملائم من بين ما هو معروض.

يبين الموقع شروط السائق، مثلا هل يتوفر لديه مكان لحقيبة و يبين أقدمية السائق مع الموقع و النقطة التي حصل عليها من تقييم مسافرين سابقين معه.

الانطلاق كان من أمام إحدى أجنحة جامعة (لافال). و قد استفدت من الفرصة لأتجول فيه وأشتري وجبة غداء من مطعمه. و هو مفتوح للعموم و أسعاره تجارية مرتفعة كسائر الأسعار في البلد.

كنت الوحيد من غير كيبيك. فالسائق وراكبتان كلهم كيبيكيون. فكانت فرصة لسماع نطق اللهجة المحلية من قرب أثناء حديثهم. و هي لكنة فيها صعوبة يحتاج متحدث الفرنسية لوقت ليألفها.

كالعادة كانوا يظنون الفرنسية من اللغات الوطنية في المغرب. و قد صححت لهم ذلك بشكل صارم و بمعلومات كافية جعلتهم يتأوهون أسفا للحالة اللغوية التي نعيشها، مقارنة مع حزمهم في حماية لغتهم و استخدامها في كل المجالات.

بعد محاولات لنطق اسمي بشكل صحيح حدثتهم عن صوتي الحاء و العين النادرين في اللغات و صعوبتهما على من لم يتعلمهما في الطفولة.

و في نهاية الرحلة كان السائق (هيجو) يحسن كلمتي (شكرا) و (عفوا) بعد تكرارهما مرات عديدة. وقد قال إنه يفكر في تعلم العربية.

لي طلب للمغاربيين من العرب و الأمازيغ حين يجولون في العالم أن يكفوا عن ادعاء أن الفرنسية لغة وطنية أو لغة أم في بلداننا. إنكم تفسدون معلومات الناس الجغرافية والثقافية بدون

مقابل.

اللغة البريتانية الضائعة!

خلال جولة مشي مع دليل سياحي في الحي القديم من مدينة كيبيك بكندا التقيت شابين قادمين من مدينة رانس بإقليم بروتاني بفرنسا. كان موضوع اللغة الفرنسية و جهود أهل كيبيك في الحفاظ عليها و حمايتها حاضرا بقوة في الجولة باعتباره جزءا أساسيا من تاريخ المنطقة.

كان الدليل يشرح بالإنجليزية ثم يشرح للشابين بالفرنسية لأنهما لا يحسنان الانجليزية.

في موقع من قلعة كيبيك القديمة مطل على نهر القديس لورنس شرح لنا الدليل تفاصيل عن هزيمة الأميركيين و ردهم على أعقابهم بعد هجوم قام به الجيش الأميركي في بداية حرب التحرير ضد بريطانيا سنة 1775.

قال الدليل متباهيا: "لو هزمنا حينها لكنا جزءا من الولايات المتحدة اليوم، و لكان رئيسنا ترامب، و لكانت فرنسيتنا ذهبت و لم يبق منها إلا كلمات أثرية قليلة مثلما حدث في لويزيانا ..."

تدخلت مشيرا إلى الشابين الفرنسيين "أو مثلما حدث مع اللغة البريتانية" فهزا رأسهما موافقة. و كانا أخبراني قبل ذلك أن جيلهما لا يعرف من لغته الأصلية إلا كلمات قليلة مثل "مرحبا" و "وداعا".

قيمة العربية

تمتع بقراءة القرآن والحديث النبوي، فهي ميزة نادرة في عالم اليوم.

فلا يوجد في العالم أمة من الموحدين تستطيع قراءة الكتاب المنزل لها كما أنزل وفهمه وتدبره كما هو حال من يحسن العربية من المسلمين.

ولا توجد أمة تحسن قراءة كلام نبيها كما قاله بلفظه صلى الله عليه وسلم، وفهمَه وتدبرَه كما هو حال من يحسن العربية من المسلمين.

وقد تولى الله حفظ القرآن فتجد في كل مساجد العالم من بكين إلى لوس أنجيليس نفس المصحف. وتقرأ نفس السور وتصلي بنفس الآيات مهما كان المذهب ومهما كانت الطائفة.

وتولى المسلمون تدقيق الحديث وتحديد الصحيح من الموضوع وأبدعوا لذلك علما لم يسبقوا إليه وهو علم الجرح والتعديل. فصرت تطمئن حين ترى "متفق عليه" أو "رواه البخاري" مثلا إلى أنك تسمع وتقرأ كلاما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم.

هذه نعمة عظيمة فتمتعوا بها. ومتعوا بها غيركم. ونبهوهم إليها حتى لا يحرموا.

ملحق

قانون حماية اللغة العربية – الأردن

نحن عبدالله الثاني ابن الحسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية

بمقتضي المادة (31) من الدستـور

وبناء على ما قرره مجلسا الأعيان والنواب

نصادق على القانون الآتي ونـأمر بإصداره

وإضافته إلى قوانين الدولة:

قانون رقم (35) لسنة 2015

قانون حماية اللغة العربية

المادة 1- يسمى هذا القانون (قانون حماية اللغة العربية لسنة 2015) ويعمل به بعد ستين يوماً من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

المادة 2- يكون للكلمات والعبارات التالية حيثما وردت في هذا القانون المعاني المخصصة لها أدناه ما لم تدل القرينة على غير ذلك:

- المجمع: مجمع اللغة العربية الأردني.
- اللغة العربية: اللغة العربية السليمة المتقنة تدويناً ولفظاً والخالية من الأخطاء النحوية واللغوية.

المادة 3- أ- تلتزم الوزارات والدوائر الحكومية والمؤسسات الرسمية العامة والمؤسسات العامة والخاصة والبلديات والنقابات والجمعيات والنوادي والأحزاب ومنظمات المجتمع المدني والشركات باستخدام اللغة العربية في نشاطها الرسمي ويشمل ذلك تسمياتها ووثائقها ومعاملاتها وسجلاتها وقيودها والوثائق والعقود والمعاهدات والاتفاقيات والعطاءات التي تكون طرفاً فيها والكتب الصادرة عنها ومنشوراتها وقوائمها ولوائح أسعارها والبيانات والمعلومات المتعلقة بالمصنوعات والمنتجات الأردنية بما في ذلك المنتجات التي تصنع في المملكة بترخيص من شركات أجنبية وأنظمة العمل الداخلية لأي شركة أو مؤسسة أو هيئة رسمية أو أهلية أو خاصة أو عقود العمل والتعليمات الصادرة بموجب القوانين والأنظمة وأدلة الإجراءات والعمليات الخاصة

بها وأي إعلانات مرئية أو مسموعة أو مقروءة موجهة للجمهور أو أي منشورات دعائية وغير دعائية وأي حملات إعلامية.

ب- في حال استخدام الجهات المنصوص عليها في الفقرة (أ) من هذه المادة لغة أجنبية فعليها أن ترفق بها ترجمة إلى اللغة العربية.

المادة 4- يجب أن يكون باللغة العربية:

أأي إعلان يبث أو ينشر أو يثبت على الطريق العام أو في أي مكان عام أو وسائط نقل عام، ويجوز أن تضاف ترجمة له بلغة أجنبية على أن تكون اللغة العربية أكبر حجماً وأبرز مكاناً.

ب ترجمة الأفلام والمصنفات الناطقة بغير العربية المرخص عرضها في المملكة صوتاً أو كتابةً.

المادة 5- أ- تكتب باللغة العربية:

1- لافتات أسماء المؤسسات المشمولة بأحكام هذا القانون وعنوان قرطاسيتها.

2- أو راق النقد والمسكوكات والطوابع والميداليات الأردنية.

3- الشهادات والمصدقات العلمية.

بـيجوز أن تضاف إلى الكتابة العربية ما يقابلها بلغة أجنبية على أن تكون اللغة العربية أكبر حجماً وأبرز مكاناً.

المادة 6- تسمي بأسماء عربية سليمة:

أالشوارع والأحياء والساحات العامة وغيرها من المواقع، وتستثنى من ذلك أسماء الأعلام غير العربية.

بـالمؤسسات التجارية والمالية والصناعية والعلمية والاجتماعية والخدمية والترفيه والسياحة وغيرها من المؤسسات العامة والخاصة والأهلية.

المادة 7- تلتزم جميع الجهات المشمولة بأحكام هذا القانون بالمصطلحات العلمية والفنية التي يعتمدها المجمع.

المادة 8-

أ- يلتزم المعلمون في مراحل التعليم العام وأعضاء هيئة التدريس في التعليم العالي باستخدام اللغة العربية في التدريس.

ب- اللغة العربية لغة البحث العلمي وتنشر البحوث بها ويجوز النشر بلغات أجنبية بشرط أن يقدم الباحث ترجمة للبحث باللغة العربية تعميماً للفائدة للجهات ذات العلاقة.

ج- تسري أحكام الفقرتين (أ) و(ب) من هذه المادة على المتحدثين والمناقشين في المؤتمرات والندوات والاجتماعات التي تعقد في المملكة.

المادة 9- يجوز للمؤسسات التي تستورد سلعاً وبضائع أجنبية استخدام لغة أجنبية على أن تضاف إليها ترجمة عربية، وتستثنى من ذلك العلامة التجارية المسجلة وفقاً لأحكام قانون العلامات التجارية.

المادة 10-

أ- لا يعين معلم في التعليم العام أو عضو هيئة تدريس في التعليم العالي أو مذيع أو معد أو محرر في أي مؤسسة إعلامية إلا إذا اجتاز امتحان الكفاية في اللغة العربية ويستثنى من اجتياز هذا الامتحان المعلمون من غير الناطقين باللغة العربية أو الذين يدرسون بلغة أجنبية وتستقدمهم أي مؤسسة تعليمية بموافقة وزارة التربية والتعليم أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي حسب مقتضى الحال للتدريس بلغة أجنبية والعاملون في الأقسام الأجنبية في وسائل الإعلام.

ب-تحدد جميع الأمور المتعلقة بامتحان الكفاية في اللغة العربية بما في ذلك الرسوم التي تستوفى بمقتضى نظام يصدر لهذه الغاية.

المادة 11- تصاغ جميع تشريعات الدولة باللغة العربية.

المادة 12-

أ- اللغة العربية هي لغة المحادثات والمفاوضات والمذكرات والمراسلات والاتفاقيات والمعاهدات التي تتم مع الحكومات الأخرى والمؤسسات والمنظمات والهيئات الدولية وهي لغة الخطاب التي تلقى في الاجتماعات الدولية والمؤتمرات الرسمية ما أمكن ذلك.

ب- تعتمد اللغة العربية في كتابة العقود والمعاهدات والاتفاقيات التي تعقد بين المملكة الأردنية الهاشمية وبين الدول الأخرى والشركات ذات الجنسية غير الأردنية مرفقاً بأي منها ترجمة إلى اللغة المعتمدة لدى الطرف الآخر وفي هذه الحالة تكون للصيغتين القوة القانونية نفسها.

المادة 13- تلتزم مؤسسات التعليم العالي الرسمية والخاصة والمؤسسات التعليمية على

اختلاف أنواعها ودرجاتها بالتدريس باللغة العربية في جميع العلوم والمعارف، باستثناء ما تقرره وزارة التربية والتعليم ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي بهذا الخصوص.

المادة 14- تلزم مؤسسات الدولة كافة بالعمل على سيادة اللغة العربية وتعزيز دورها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ومؤسسات المجتمع المدني وفي الأنشطة العلمية والثقافية.

المادة 15- يعاقب كل من يخالف أحكام هذا القانون أو الأنظمة أو التعليمات الصادرة بموجبه بغرامة لا تقل عن ألف دينار ولا تزيد على ثلاثة آلاف دينار.

المادة 16- تشكل لجنة من كل من مجمع اللغة العربية ووزارة الصناعة والتجارة والتموين ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي ووزارة التربية والتعليم وهيئة الإعلام على أن تختص بتوفيق أو ضاع المؤسسات المخالفة لأحكام هذا القانون وفقاً لأحكامه خلال مدة لا تزيد على سنة واحدة من تاريخ نفاذه.

المادة 17- يصدر مجلس الوزراء الأنظمة اللازمة لتنفيذ أحكام هذا القانون.

المادة 18- رئيس الوزراء والوزراء مكلفون بتنفيذ أحكام هذا القانون.

المحتويات